ماري ويبرلي

الوَجهُ الآخر للذئبِ

مكتبة زهران

الوجه الآخر للذئب

عاشت جين
في كنف خالتها دورثي من غير
ان تعلم شيئا عن والدها سوى ما أخبرتها اياه
الخاله وهو ان هذا الاب القاسي الاناني تخلى عنها. منذ
١٢ سنه وغادر البيت الى غير رجعه. وفجأة عرفت جين ان
والدها لم يتخل عنها، وانه كان يراسلها بأستمرار من دون ان تصلها
ايه رسالة. الى ان وقعت على الرسالة الاخيرة التي يدعوها فيها الى
زيارته في جزيرة (سارامنكا) وفي المطار اصطدمت جين بمشهد آلمها: رجل
ضخم الجثه يصرخ في أمرأة صينية مسنه، واثنان من اتباع الرجل يأخذانها
الى جهه مجهوله. وتشاء الصدفه ان تلتقي جين الرجل نفسه بعد وصولها
الى الجزيرة، وفي بيت ابيها بالذات.. وتتكرر المصادفات وكذلك اللقاءات،
وفي كل لقاء كانت جين فريسة احاسيس متناقضة تجاه الرجل الذي
ارعبها تصرفه في المطار. من هو هذا الرجل، وما هي حقيقة قصه
المرأة الصينية.. وما هو الدور الذي يلعبة السيد غرانت في
الجزيرة.. وكيف انتهى الصراع الطويل المرير بين جين
والرجل القوي؟

مكتبة زهران

جمهورية مصر العربية - القاهرة
١٥ شارع الشيخ محمد عبده - خلف الجامع الأزهر
ت ٥١٤٢٩٥٥٠ - موبايل ٠١٢٣٧٨٦٥٤٨٠

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية
MASTER OF SARAMANCA

١ ـ أنا آتية يا ابي

أول ما شاهدت جين هذا الرجل نفرت منه وقضمت شفتيها وسارعت الى المجلة المفتوحة فوق ركبتيها محاولة أن تحجب عن أذنيها ضجة الاصوات المرتفعة في مبنى المطار الذي تشوبه لسعة الحرارة في المرحلة النهائية من رحلتها الى جزيرة سارامانكا . كانت الخالة دورثي تبعد عنها آلاف الأميال ، هناك في انكلترا ، وبرغم ذلك كانت كلما تطن في اذنيها : لن تستطيعي ان تعيشي وسط هذا اللجيج.»

لم تكن هناك فائدة . فقد كان من المستحيل تجاهل ذلك المشهد كما كان من المستحيل تجاهل الخالة دورثي وقد انطلقت في انفعال . رفعت جين رأسها على مضض ونظرت ثانية الى الرجل المتسبب في تلك الضجة. كانت قامته أطول من الآخرين، وشامخاً أمام بعض الموظفين، وأمام المرأة الصينية المنحنية متشبثة بحقيبتها الكرتونية الرثة. كان هناك أيضا عدد من المتفرجين الذين شدهم ذلك المشهد. كان الرجل غاضباً وبرغم هذا لم يكن صوته مرتفعاً. بيد أنه عندما كان يتكلم، كان يفعل كمن له سلطان، وكان الآخرون يسمعونه لفترة وجيزة، ليتحركوا من جديد ملوحين بايديهم، وجبينهم مكدود في يأس

واضح. لم تكن لدى جين أدنى فكرة عما يدور. المرأة الصينية يعلو هامتها المشيب، هادئة بجلال غريب وسط ذلك الهياج.

«يبدو أننا سنظل هنا الى أن تنتهي المشكلة.»

رفعت رأسها سريعاً لتنظر الى الرجل في جوارها. يبدو أنه أميركي، وقد تدلت آلة تصوير من عنقه فوق قميص منقوش بأزهار تخطف البصر.

«نعم ، برغم أني لا أعرف السبب.»

الرجل كان في الستين من عمره، بشرته سمراء وشعره كستنائي وعيناه بنيتان. جلس في جوارها، وقد اعتبر ردها دعوة صريحة لتبادل الحديث وقال:

«يبدو أنّ ذلك الشخص الضخم يعترض على أن تنتقل السيدة الصينية الطائرة الى سارامانكا . أو على الأقل هذا هو الانطباع الذي كونته.»

نظرت عبر القاعة نحو الرجل. ترى ماهي فرصة مثل تلك المرأة المسكينة للوقوف أمام رجل كهذا ؟ من الواضح أنه لاتوجد فرصة على الاطلاق. ثم بدأ الجمع يتفرّق. واقتاد أحد المسؤولين المرأة بعيداً تاركاً إياها تحمل حقيبتها بنفسها.

«ما اقل ذوقه...»

لم تكن تعي أنها تحدثت بصوت مسموع الى أن رأت الرجل الجالس جوارها يلوي قسمات وجهه في شبه إبتسامة.

«أنه يبدو كرجل قادر أن يصل الى ما يريد.»

وقدم لجين بطاقته :

«دعيني أقدم نفسي. جاكسون تي ميلار . يمكنك الاحتفاظ بها هل أنت ذاهبة الى سارامنكا»

«نعم ، في أجازة.»

ترددت جين عند لفظها الكلمة الأخيرة. فليس في وسعها أن تشرح لهذا الغريب عن أسباب سفرها.

«ساحضر بعض المرطبات . ما هو شرابك المفضل ؟»

ترددت جين ولكنها إبتلعت مخاوفها وقالت بخجل :

«أي شيء مثلج من فضلك. اسمي جين . جين ريتشي.»

«إني مسرور بلقائك ياجين . فأنا لا أحصل كلّ يوم على فرصه التحدث مع فتاة جميلة.»

إختفى وسط الناس ، الذين بدأوا يتحركون الآن تحركاً طبيعياً بعد أن انتهى الحدث المثير. إختفى الرجل الضخم. لكن أحست جين برعشه خفيفة لم تره إلاّ عن بعد مع ذلك تلقت إنطباعاً بأنّ قوة قاسية تنبعث منه. الرجل شديد السمرة وقد لفحته الشمس، يرتدي بزة بلون الظبي الصغير من قماش خشن. لن تراه ثانية، هذا شيء يسعدها. بدأ ينقشع قدر من اليأس الذي خيم على جين قبل أن تترك لندن منذ ساعات . فهي لم تقدم على شيء خاطىء على الاطلاق. كل شيء سيسير على مايرام، برغم تنبؤات الخالة دورثي المليئة بالتشاؤم.

تطلّعت جين أمامها، لكنها لم تر ذلك الحشد، ولم تسمع تلك الثرثرة الحادة المتنوعة اللغات فللحظات عادت بذاكرتها الى لندن لتعيش من جديد الصدام المرير مع خالتها.

«أنها فرصتك الأخيرة. اذا ذهبت فلن تعودي الى هنا ابداً.»

كانت الخالة دورثي تقف في جوار النافذة مولية ظهرها لجين . وحين إستدارت ببطء كانت هناك بقعتان مشتعلتان فوق وجنتيهـا وأحسّت جين بوخزة تسري فيها بقوة لعلها من الشعور بالاشفاق، اذ فجأة رأت عمتها على حقيقتها، أمرأة وحيدة في خريف عمرها تشعر بالمرارة وهي ترى إبنة أختها تتحداها للمرة الأولى في حياتها.

«خالتي دورثي. اعلم أنك كنت كريمة للغاية عندما سمحت لي بأن أعيش معك السنوات الست الأخيرة وانا اقدّر كل مافعلته من أجلي، ولكن ألا تستطيعين أن تتفهمي موقفي، أريد أن اشاهد والدي ألا يمكنك أن تحاولي ان تقدّري وضعي؟»

«كنت في السادسة من عمرك. عندما هجر والدك البيت ولم يسأل عنك. ماذا تتذكرين قولي ؟ لاشيء. لم يكن يصلح لشيء ولن يصلح أبدا.»

كانت يدا الخالة دورثي متشبثتين بظهر المقعد وقد بدت مفاصلها بيضاء من التوتر ووجهها شاحبا.

هزّت جين رأسها وهي تقول :

«بعث الي برسائل مرّات عدّة. دون ان تصلني واحدة منها. ولـو لم يكشف لي ساعي البريد الى مصادفة لما علمت بذلك . لماذا اخفيت الرسائل عني؟»

«فعلت ذلك من اجلك انت. لم أكن أريد أن أزعجك.»

«كانت الرسائل لي . لم يكن من حقك أن تخفيها عني.»

«كان لي كل الحق. انت تعيشين في بيتي وفي حمايتي.»

ضغطت جين على الرسالة الأخيرة التي تمدّها بالشجاعة لم تعد

تخشى الآن تلك المرأة التي سيطرت على حياتها منذ كانت في الثانية عشرة من عمرها، منذ وفاة أمها.

«أنا لم أدرك الى أي حدّ كنت مستاءة لبقائي معك. أنا آسفة ولكني سأبذل قصارى جهدي لأعوضك عما بذلت. سأعمل في عطلة نهاية الاسبوع إبان دراستي في كلية المعلمات.»

أمسكت عن الكلام بعدما رأت وجه خالتها الغاضب المتجهّم. إندفعت الدموع الى عينيها. أحسّت بصدمة حين إكتشفت فجأة أن خالتها تضنّ عليها بتلك الرعاية التي منحتها إياها طوال تلك السنين. والآن اتخذت جين قرارها، ولا عودة عنه. ليحدث ما يحدث فهي ذاهبة لرؤية أبيها. انه لم يكن في حالة صحية تسمح له بالسفر وإلاّ لكان حضر الى انكلترا. أبلغها ذلك في رسائله، رسائله التي ظلّت حبيسة صندوق مكتب خالتها. قرأتها جين جميعا: رسالة رسالتان كل عام، من أماكن مختلفة من شتّى أنحاء العالم، عدا الرسائل الأربع الأخيرة، فجميعها أرسلت من جزيرة في المحيط الهندي، اسمهـا سارامنكا . كانت طوابع تلك الرسائل رائعة الجمال عليها صور لطيور وأزهار غريبة بعثت جين على الفور برسالة الى العنوان المثبت على متن الرسالة المهترئة. وجاءها الرد. بعد خمسة أيام، رسالة مقتضبة: رسالتي في الطريق اليك وفيها نفقات الطائرة. إحضري أرجوك.

مسحت جين دموعها، واستدارت تحمل حقائبها، لم يعد هناك مجالات لأي حديث.

«هيا، إستيقظي ياحلوتي جين . ان الثلج يذوب.»

كلمات قليلة اعادت جين الى الواقع، لترى صديقها الجديد يرقبها بابتسامة عريضة.

«أنا آسفة، سافرت مع تأملاتي الى بعيد»

أخذت الكوب المقدّم اليها، شاكرة صديقها الاميركي، ثم مر في جوار المائدة احد الخدام ليقول:

«ستقلع الطائرة بعد خمس عشرة دقيقة.»

قاومت جين احساساً بالذعر بدأ يهاجمها. لقد إقتربوا الآن من نهاية رحلتهم. ماذا لو كانت الخالة دورثي على حق : هل هي متهورة حمقاء ؟ انطلقت الافكار في دوامة جنونية. ثلاث ساعات أخرى ويصلون.

سألت رفيقها الاميركي :

«هل ذهبت قبل الآن الى سارامنكا ؟»

«نعم، مرة أثناء الحرب لا يمكنني ان انساها. وهذا هو سبب عودتي اليها.»

«اخبرني عنها بالتفصيل.»

«أظنّ أنها مختلفة الآن، لكنها مكان فسيح قد يصل طولها الى ستين ميلا. تبدو من الطائرة وكأنها سمكة عملاقة. خضراء جداً، نباتها مورق وطبيعتها غنية بما يسحر ويريح.»

كانت في عينيه نظرة حالمة كأنه غجري منطلق مع قيثارته :

«نعم ياسيدتي، انها رائعة هناك ينمو قصب السكر على مدى أميال وأميال.»

«هل أنت ذاهب في أجازة؟»

«يمكنك ان تسميها رحلة الى الماضي.»

توقف قليلاً ثم ابتسم وقال:

«ولكن ما الذي يجعل فتاة مثلك تقطع كل هذه المسافة وحيدة لتأتي الى هنا.»

روت له جين بايجاز قصة رسالة أبيها ودعوته المفاجئة لها.

«هذا شيء رائع. ألم تريه منذ اثنتي عشرة سنة ؟ أراهن أنه سيكون لقاءً رائعاً.»

عبر الميكروفون جاء صوت المذيعة الجاف :

«الرجاء من المسافرين الى سارامنكا التوجه الى الباب الرئيسي.»

جلست جين في مقعد مجاور للنافذة محدقة في الحشد الصغير المتجمّع أمام مدخل الباب الرئيسي وأحستّ بالارتياح وهي ترقب ذلك الحشد لأنه لم يكن هناك أثر لذلك الرجل الغريب الطويل القامة. أقلعت عدّة طائرات منذ أن حدث ذلك ذلك المشهد الكريه في المطار. من المحتمل أن يكون قد استقلّ إحداها. لم يكن هناك أثر أيضاً للمرأة الصينية. وتساءلت جين عما يكون قد حدث لها. إنّ منظر تلك المرأة العجوز وهم يقودونها بعيداً لا يبرح مخيلتها . وعندما كانت على وشك أن تدير رأسها بعيداً عن النافذة لتحدّث رفيقها المنهمك في دراسة بعض الأوراق التي استخرجها من محفظته، توقفت وأطلقت شهقة وقالت :

«أوه ـ لا .»

«ماذا هناك ؟»

«أنظر.»

أشارت جين الى رجل طويل يسير متمهلاً خارجاً من المبنى. كان هو ذلك الرجل نفسه، الذي تسبّب في ذلك الصخب يسير الآن نحو الطائرة. كان قد خلع سترته، وحملها فوق كتفه، كان يبدو وكأنه غير مبال بأي شيء حوله.

«اعتقدت بأنه رحل.»

«أنا أيضا. هل قلت إنّ سارامنكا كبيرة ؟»

«كبيرة بالقدر الذي يكفي لكي لا تصدمي به ، اذا كان هذا ماتعنينه من السؤال.»

ضحك ضحكة خفيفة وقال :

«هل تكرهينه الى هذا الحد ؟»

«أنا لا أحب أيّ شخص يستخدم ماله ونفوذه أو أي شيء ليستأسد على من هم أضعف منه.»

«في عينيك بريق غامض ، أتدرين أنك جميلة حقاً ؟ تذكرينني بابنتي الصغرى»

تحسّ جيب سترته وأخرج محفظة سحب منها صورة بناته وزوجته، فراحت جين تلهي نفسها بمشاهدة الصور كيلا ترى الرجل الضخم الذي دخل الطائرة في اللحظة نفسها، حانياً رأسه ثم سار متجهاً نحوها.

«أنهنّ جميعاً جميلات .»

قالت ذلك وهي تتجاهل المضيفة وهي تحوم حول الرجل الذي استقرّ في مقعد في مؤخرة الطائرة . وقد جرت بينهما أحاديث لم يكن في

وسعها أن تسمعها

وعادت جين تتأمل افراد عائلة رفيقها الاميركي. عرفت ماذا كان يعني جاكسون بالتشابه بينها وبين إبنته. كانت الفتاة طويلة ، ربما أطول قليلاً من جين . كان شعرها طويلاً مسترسلاً داكنا، كما كان هناك تشابه طفيف مع عيني الفتاة الواسعتين ذاتي الرموش الكثيفة. أعادت جين الصور مبتسمة. كانت برغم كل شيء متنبهة تماماً الى وجود الرجل الجالس خلفها. وحين دعي الركاب الى ربط الأحزمة استجابت بصورة تلقائية. قد تكون تلك هي المرة الأخيرة التي سترى فيها الرجل الضخم بعد مغادرة المطار. في اي حال ان ما يهمها الآن هو انها ذاهبة الى والدها. لفحتهم الحرارة وهم يغادرون الطائرة. تعثّرت جين على السلم فأمسك جاكسون بذراعها ثم نظر اليها. في حنان وقال :

«هل سيكون والدك باستقبالك ؟»

هزت رأسها وهي تطرف بعينيها قليلاً من شدّة وهج الشمس :

«كلا. طلب من إحدى جاراته ان تستقبلني أرسلت صورتي في رسالتي الأخيرة وقال لي إنها ستتعرّف علي أنا أشعر ببعض الدوار.»

«سأنتظر حتى تأتي هذه الصديقة. لا أحد يعرف ماسيحدث.»

«أنت طيّب للغاية ، لكني»

«لايمكنني ان اتخلى عنك وانت في هذه الحال.»

«آسفة ماذا قلت ؟»

أعادها صوت جاكسون مرّة أخرى الى الواقع.

«يبدو أن تلك السيدة القصيرة تلوّح لك.»

نظرت جين الى الحشد الصغير المتجمّع خلف حاجز خشبي.
الجميع يلوحون بالمناديل تنطلق منهم أصوات سعيدة صاخبة، رأت أمرأة شقراء تلبس ثوباً بسيطاً مشجراً بالازهار. كانت تمسك بصورة فوتوغرافية، وعيناها تحدّقان في جين وهي تبتسم.

«أنت على حق. هذه المرأة جاءت لترافقني .»

لم يكن ما عاشته حلماً . أن أباها موجود هنا بالفعل، وقد أرسل في طلبها.

قالت المرأة الشقراء ذات الاربعين عاماً :

«ياعزيزتي، عرفتك فوراً ـ أنا ميغان ديفيز جارة أبيك هل كانت رحلتك جيدة؟»

«رائعة . شكراً لكنني متعبة قليلاً .»

وبعدما تعرف جاكسون الى المرأة قال :

«سعدت بلقائك يا ديفيز . كنت أود فقط التأكد من أنّ شخصاً ما سيكون في لقاء جين .»

قالت جين ضاحكة :

«شكرا لك على رعايتك واهتمامك.»

وبعد مغادرتها أرض المطار حدث شيء غريب . أطلقت ميغان نفير سيارتها ولوحّت بيدها. استدارت جين وفي ظنها انها تلوح لجاكسون لكنها كانت سيارة مرسيدس بيضاء انطلقت بجوارها. وأثناء ذلك حيّا السائق ميغان . لم يكن ذلك الشخص سوى الرجل المشاغب الضخم.

«لم أعرف أنه عاد على الطائرة نفسها معك.»

استدارت ميغان في ذهول في اتجاه جين ، ورأت التعبير الذي يعلو وجهها وقالت:

«ماذا هناك ياجين ؟»

«لا شيء ...سبق لنا وشاهدنا هذا الرجل في مطار جافر كان يتشاجر مع بعض الموظفين.»

انطلقت ميغان ضاحكة :

«انه غافن غرانت المعروف في كلّ مكان . ماذا كان سبب الشجار؟»

«لا أعرف .»

ردّت جين بهدوء مدركة أنها تقف على أرض زلقه. فهذا الرجل، كما يبدو صديق لميغان. لذا ينبغي ألا تحسّ به.»

لكنها لم تستطع الكذب، وأفصحت قائلة :

«جاكسون يعتقد أنه كان يحاول منع امرأة صينية من ان تستقل الطائرة. كانت تقف هناك ممسكه بحقيبة ضخمة من الكرتون، ثم اقتادوها بعيداً وما عدنا رأيناها.»

«أنا واثقة، أنّ الحقيقة تختلف عن المظهر تماماً.»

«كيف حال أبي ؟»

ادارت جين ان تغير مجرى الحديث

«ليس على مايرام ياجين . انه في شوق الى رؤيتك طوال الاسابيع القليلة الماضية ومنذ أن قلت إنك قادمه كان كالطفل. اضطرّ ماك أن يعطيه مهدئاً غير مرة.»

«ماك ؟»

«الدكتور دانكان ماكدونا هو معروف لدى ابناء الجزيرة باسم ماك

أنه لم يفقد أبداً لهجته الاسكتلندية الواضحة وهو ووالدك صديقان قديمان.»

«بماذا يشعر ابي ؟»

«لانعلم ماك طلب منه أن يذهب ليعرض نفسه على صديق له أخصائي في سيلان. لكنه رفض باصرار ارجو ان تحاولي اقناعه.»

«سأحاول بالطبع.»

ربتت ميغان على ذراعها .»

«أنا سعيدة بمجيئك ياجين فانا في حاجة الى صديقة تخفف عني وطأة الرجال.»

«هل هذا أمر سيء ؟»

«كلا، ولكن ليس في وسعك أن تتحدثي معهم بالطريقة نفسها، أتستطيعين ذلك؟ ابني كولين سيحاول على الأرجح أن يختطفك بعيداً، لكنني سأكون حازمة.»

«كولين ماعمره ؟»

كانت جين تتصوره غلاماً في سن المراهقة.

«٢٣ سنة. انه يعمل لدى غافين »

«أنا لا أعرف أي شيء عنك وعن عائلتك.»

«أنا أقطن قريباً من أبيك. وعندما أقول جارته الملاصقة فهذا صحيح الى حد ما لكن منزلي يبعد عنه حوالي نصف ميل تقريباً. أنا أرملة منذ سبع سنوات وأعيش مع كولن. أما أبوك فيعيش وحيداً باستثناء إلين مديرة المنزل هي لطيفة للغاية ولكنها ميالة جداً الى السيطرة. ثم هناك غافن.»

«أتعنين ان غافن جار لأبي أيضاً ؟»

«نعم يجب أن تري منزله ياعزيزتي أنه خرافي. فهو في الواقع يملك الجزيرة ويفرض عليها قوانينه الخاصة كما ستكتشفين بنفسك.»

ضحكت ثم إستطردت :

«هناك ليوني سمايث وابنتها سارة لكن منزلها يبعد أميالاً عدة. ستلتقين بها حتماً. احب ان اعرف رأيك فيهما، ان ليوني ترغب في أن ترى ابنتها زوجة لغافن . وهي قد ترى فيك المنافسة الخطيرة. ألم يقل لك أحد بعد كم أنت جميلة؟ لو كنت أملك عينيك الخضراوين لكنت في قمة السعادة.»

صمتت جين. أدركت فجأة أن ميغان كانت تتحدث في صدق، الخالة دوروثي غرست فيها وبصفة مستمرة أنها مجرد فتاة عادية، وتقبلت هي هذا الوضع، كان ذلك يجعل الحياة أسهل. والان بدأت تدرك أن آراء الخالة ليست دائماً في محلها.

وصلنا الى المنطقة المتحضرة ، بدت لمحات خاطفة لبعض الفيلات من خلال أشجار النخيل الكثيفة. مبان منخفضة بيضاء ذات أبواب ملونة، وصاحت جين:

«أنها رائعة .»

«وصلنا الآن الى منزل غافن. انظري الى يسارك ياجين، هناك منزل عال ذو شبابيك خضراء وسطح من القرميد، تحيط به حديقة ملأى بالاشجار والازهار اليانعة المورقة من كل نوع ولون.»

«هل يسكن هنا ؟»

«نعم، انه يقيم حفلات رائعة تظل حديث سارامنكا كلها.»

شعرت جين بما يشبه الجيشان بسبب حرارة الجو من جهة وبسبب ازدياد كرهها لغافن الذي يحظى، على مايبدو، باحترام المرأة التي ترافقها.

وعقدت العزم على ألاّ تذهب الى اي من حفلاته اذا دعاها وهذا أمر مستبعد.

أدركت، وقد أسرعت خفقات قلبها، أنهما يقتربان من منزل أبيها. كيف سيكون شكل البيت من الواضح أن هناك ثراء أين هو مما قالته الخالة دورثي؟ قالت أنه على الأرجح يعيش في كوخ بناه من اعشاب الشاطىء يالبتها كانت هنا الآن.

«أشكرك، لك يامغان حضورك للقيابي.»

ضحكت ميغان قائلة:

«يجب أن أعترف بأنني كنت متشوّقة لاراك آمل أن اكون حاضره عندما تلتقين ليون و سارة.»

«أنا ارجو ذلك أيضاً ياعزيزتي»

«وصلنا .»

إنعطفت السيارة الى طريق خاص واسع متعرج يشبه كثيراً الطريق المؤدي الى منزل غافين غرانت غير أنّ المسافة بين الطريق والفيللا البيضاء التي ظهرت الآن كانت أقصر. شهقت جين في دهشة عندما شاهدت المنزل. كانت هناك شرفة طويلة فيها أعمدة بيضاء نحيله تدعم ترميد السقف. وكانت النوافذ ذات لون أخضر فاتح وقد فتحت على مصراعيها أمام أشعة الشمس. كل هذا محاط بمنظر الأزهار والورود ذات الرائحة الشذية وقد ترعرعت في انطلاق

حول الحشائش الخضراء.

قالت جين :

«لم اكن اتوقع ان يكون بيت ابي في مثل هذا الجمال.»

«حسنا تعالي ياعزيزتي فأبوك ينتظرك.»

كان هناك شيء غريب في الطريقة التي تحدثت بها ميغان لكن جين لم تكتشف السبب الاّ بعد فترة. خرجت من السيارة وهي تشعر بالتعب. وسط حرارة شديدة مشبعه بالرطوبة.

قالت ميغان :

«ستعتادين ذلك حاولي الاحتفاظ بطاقتك الى ما بعد الظهر وأؤكد لك أن الجو يصبح أبرد وألطف في المساء.»

دخلنا الى بهو رطب جدرانه بيضاء فيه سجاجيد رقيقة فوق أرضيته الخشبية اللامعة. كان هناك أيضاً العديد من اللوحات المعلقة فوق الجدران. وغيتار ينعكس خشبه الداكن الضخم مع لون الجدار الأبيض المبهر من خلفه فرحت جين برؤية الغيتار وكانت على وشك أن تتكلم عندما سمعت صوتاً يقول:

«ميغان ، هل أحضرت ابنتي معك.؟»

جاء صوت ميغان بنغم شجي:

«نعم ياجون ، وستأتي فورا.»

دخلنا غرفة جلوس فسيحة في مؤخرتها نوافذ واسعة تطّل على مزيد من الحدائق تنحدر نحو غابة من النخيل ذى الورق اللامع المتموج. تناثرت في الغرفة قطع من الأثاث الخيزراني البسيط التي أعطت انطباعاً بالاناقة وقد أمتلأت الجدران بمزيد من اللوحات. وسط كل هذا

كان الرجل هو الذي أستحوذ على انتباه جين وقد تلاشى كل ماعداه وهو ينهض من مقعده وذراعاه ممدوتان.

«جين ، إبنتي ....»

كان صوته منفعلا ، واتجهت نحوه كأنها في حلم. كان هذا هو الرجل الذي حلمت به ولم تتخيّل أنها ستراه. كان أكبر سنا مما كانت تظن ذاكرتها، لكن جون ريتشي كان رجلاً وسيماً، وكان شعره الداكن الذي يتخلله لون رمادي باهت ممشطاً الى الخلف كاشفا عن جبين عريض، كانت عيناه تشبهان كثيرا عيني ابنته، حنونتين، مليئتين بالحزن.

«أبي ، أبي !»

«جين طفلتي بعد كل تلك السنوات.»

تعلّق كل منهما بالآخر في صمت ثم أبعدها في رفق:

«دعيني أتأملك. انا لا اصدق أنك انت ابنتي حقاً.»

«نعم أنا ابنتك. وعندي الكثير مما يجب ان تطلع عليه.»

«لا. ليس الآن قلت لي ما يكفي ياجين في رسائلك. لست في حاجة الى أن تقولي لي شيئاً عن شخصية دورثي. أين ميغان؟»

عادت ميغان وهي تبتسم:

«سمحت لي إلين أن أحضر لكما هذا بنفسي. ستحضر هي بعض الكعك.»

استطردت ميغان وهم يتناولون القهوة:

«رأينا غافن في المطار. لم أكن أعلم أنه سيكون على الطائرة نفسها مع جين.»

رفع جون ريتشي، حاجبيه في دهشة :

«ولا أنا أيضا. غريب أنه لم يذكر ذلك عندما كان عندي امس.»

نظر الى جين متسائلاً:

«ما رأيك فيه ؟»

وقبل أن ترد جين اندفعت ميغان ضاحكة:

«أخشى ياجون أن تكون جين قد أخذت انطباعاً سيئاً عنه. حدث مشهد صاخب في مطار جافر ويبدو أنه كان هو المتسبب فيه.»

ابتسم جون ريتشي وقال:

«آه فهمت، يمكن أن يكون مخيفاً اذا كان في إحدى نوبات طبعه الحادة. لا بأس غداً تعرفه تماماً عندما تتعرف اليه. أنا متأكد من ذلك. والان أخبريني ياجين مارأيك في سارامنكا؟ أهي كما تصورتها.»

تنفست جين الصعداء، وراحت تروي لابيها ماشاهدته.

دخلت إلين، وكانت أمرأة ملونة ضخمة، وهي تحمل صحناً كبيراً مليئاً بالكعك والشطائر. قدمّها جون ريتشي لجين وكان من الواضح أنه يحمل لها الكثير من التقدير. وعندما غادرت الغرفة نظرت ميغان الى ساعتها وقالت:

«يجب أن أذهب الآن الى اللقاء، سأمر غداً لأراكما.»

«أن ميغان صديقة طيبة، وكذلك ابنها كولين ستكون هذه أجازة طيبة لك وسأبذل كل مافي وسعي لاجعلها كذلك.»

«يكفي إنني هنا لم اتخيل لحظة ان ذلك سيتحقق.»

أمسك جون ريتشي بيديها وقال:

«لن تأسف على مافات. ان المستقبل هو كل مايجب أن نفكر فيه الآن

أريدك أن تفكري بجدية في البقاء معي، أن تجعلي من هذا المكان بيتاً لك كان لكلماته وقع غريب على جين.»

«أنا ـ أنا»

«لا ليس الآن. أنا لا أريدك أن تقولي شيئاً الآن. أنا رجل ثري ياجين. لقد كنت محظوظاً وليس لي من أشاركه ذلك سواك. لكن القرار هو قرارك. وأنا لست مستعجلاً أشعر أنني صغرت عشر سنوات بعد أن رأيتك. إنك تشبهين أمك كثيراً.»

«توقف برهة ثم استطرد:

«لديّ الكثير لأقوله لك ـ ولكن ليس الآن. سأستدعي إلين لتريك غرفتك. استغرقت في إعدادها أياماً عدة.»

ابتسمت جين وقد بدا عليها الاعياء، ثم تذكرت شيئاً فقالت:

«رأيت آلة غيتار في البهو. أتعزف على الغيتار؟»

لمعت عيناه قائلاً:

«كنت معتاداً على ذلك في الماضي. لا تقولي لي إنك تعزفين الغيتار أيضاً؟»

«نعم، تعلمت ذلك في المدرسة. كنت أود أن أحضر غيتاري معي لكني لم أستطع نظراً للوزن المسموح به للأمتعة.»

ضحك والدها وقال: !

«هذا رائع! جين تلعب الغيتار، لا أصدّق ذلك. أتدرين أنه كان أول آلة أتعلمّ العزف عليها والآلة الوحيدة كذلك. عديني أن تسمعيني بعض الموسيقى غداً؟»

«أعدك بذلك.»

إنحنت جين لتقبله في الوقت الذي دخلت إلين تطقطق بخفيها على أرضية الحجرة البراقة وقالت لها:

«إنك في حاجة الى أن تنامي قليلاً، وغرفتك معدّة. تعالي معي.»

عندما استيقظت جين كان الظلام مخيماً وكانت الغرفة باردة. أحست بالجوع فجأة. قفزت من سريرها، لبست خفا من الفرو وتدثرت جيداً ثم ذهبت الى الحمام.

رأت ضوءاً منبعثاً من الطابق الاسفل، وبعد تردد، نزلت في هدوء. كانت تأمل أن تجد شيئاً لتأكله. سارت عبر البهو حيث كان ضوء خافت يسطع على الغيتار وعلى اللوحات. توقفت جين أمام أحداها، وقد نسيت جوعها وهي تحدّق في الألوان الزاهية في لوحة صياد يقف في جوار زورقه. كانت لوحة بالألوان الزيتية بدت أكثر اثارة وغموضا تحت الضوء الخافت. خيل الى جين انها شاهدت اللوحة من قبل. ولكن كيف يمكن أن يحدث ذلك؟

أحست بالحيرة، واستأنفت في هدوء يشدها ذلك الوهج الدافىء المنبعث من مصباح في غرفة تقع في نهاية الممر، دفعت الباب لتجد نفسها في المطبخ.

أتت إلين بحركة خفيفة في مقعدها الهزاز ثم فتحت عينيها وابتسمت لجين قائلة :

«أنت جائعة أليس كذلك؟»

«نعم. أنا آسفة يا إلين اذا كنت أزعجتك.»

«لا ياطفلتي. لقد كنت أريح عيني فقط كنت أعلم أنك ستستيقظين في هذا الوقت. الجميع يفعلون ذلك بعد رحلة طويلة. إجلسي. هناك

بعض الدجاج ساحضره لك.»

«شكرا يا إلين. رأيت منذ قليل لوحة زيتية في البهو. هل احضر أبي معه العديد من الرسوم عندما جاء الى هنا ؟»

«ماذا ؟ أنها ملكه. أعني انه هو الذي رسمها. ألم تعرفي ذلك ؟»

كانت دهشتها تعادل دهشة جين نفسها.

«أتعنين أن أبي رسام؟ هذا غير معقول.»

«نعم انه كذلك. بل انه اهم رسام. هو يبيع لوحاته في مختلف أنحاء العالم. أحقاً لا تعرفين؟»

هزت جين رأسها وهي مذهولة. أن هناك الكثير لاتعرفه، بل لايمكن لها أن تتخيله وقد بدأت الأشياء الآن تنتظم في شكل محدد:

«لم أعلم شيئاً عن أبي، لم أعلم شيئاً على الاطلاق يا إلين ، الى أن اكتشفت رسائله ورددت عليها.»

«أصدقك ياطفلتي، لاتضطربي هكذا. أني فخورة بأني أعمل لدى والدك. لقد حضر خبراء من شتى أنحاء العالم الى هنا ليروا اللوحات ويبتاعوها. ألم تشاهدي أيا منها من قبل؟»

هزت جين رأسها في ذهول:

«لاأعلم لكن اللوحه التي في البهو، لوحة الصياد والزورق، تبدو مألوفة لدى.»

«قد تكونين شاهدتها في الصحف. فقد جاء الى هنا في العام الماضي مراسلو عدد من المجلات والتقطوا صوراً لاعمال ابيك. إن اسم اوغستاس ريتشي معروف في العالم كله.»

همست جين قائلة :

«أوغستاس أوغستاس بالطبع كم كنت حمقاء!»

لقد رأت طبعات لرسومه الحية لبعض الجزر. مناظر طبيعية زاهية الألوان ذات أسلوب مميز ألحق عليه الخبراء صفة البدائية. وإستوقف نظرها إسم ريتشي ايضاً، لكن هذا هو كل ما حدث. لم تكن لتتخيل أن أباها هو الذي رسمها.

«بالطبع، إسمه جون لكن اسمه الآخر أوغستاس وهو يعني الشخص ذا المكانة الرفيعة.»

تنهدت إلين، كان وجهها ترتسم عليه الطيبة وهي تطقطق فوق أرضية المطبخ لتضع الطبق أمام جين.

«لديك الكثير لتعرفيه عن أبيك، أليس كذلك؟ إنه سعيد بمجيئك، يمكنني أن أرى ذلك وقد سررت لذلك أنا أيضاً.»

«أشكرك يا إلين.»

إبتسمت جين قائلة، وهي تحس بعاطفة مفاجئة نحو هذه المرأة:

«أنا لا أشعر بالنعاس. هل استطيع ان أخرج لأتمشى في الحديقة؟»

«بالطبع . ياحلوتي، لا لصوص هنا في سارامنكا. ولكن هل أنت متأكدة من انك ستخرجين في هذا الوقت المتأخر.»

«متأكدة طبعا. وإلاّ فلن أستطيع النوم.»

«سأحضر لك مشعلاً، فوالدك لن يسامحني اذا تعثرت وأصبت. عديني ألا تبتعدي كثيراً عن المنزل؟»

«أعدك يا إلين. أريد فقط بعض الهواء النقي.»

«اذن أصعدي حالا وارتدي معطفاً فوق قميص النوم. فالجو بارد في الخارج سأحضر لك المشعل.»

ركضت جين سعيدة الى الطابق الاعلى. فكرت أن تسير عبر ذلك الممر لتصل الى الطريق ثم تعود. ان ذلك سيساعدها في تخفيف وقع الأنباء المتراكمة عليها.

إنبعث صوت الحصى المطحون تحت قدميها ولفتها رائحة أزهار خفيفة. كان الجو بارداً، وشعرت بالسعادة لأنها تدثرت بالمعطف. ممسكه بالمشعل. وقفت قليلاً في الظلال السوداء بعيداً عن المنزل حتى تعتاد عيناها على الظلام.

كان الليل هادئاً والسماء مرصعة بالنجوم تتلألأ على مدى أبعاد لانهائية. كان الاشعاع الخافت المنبعث من القمر يعطيها ضوءاً كافياً لترى طريقها.

تنفست جين في عمق وأحست بسعادة مطلقة تجتاحها، لم يكن هناك خطأ في تصرفها. قطعت آلاف الاميال لتصل الى هنا واختفت تماماً كل المخاوف والآلام. إن والدها يريدها، وهذا هو كل مايهم.

سارت ببطء، وحرص، وكأنها تخشى أن تخدش السكينة المسيطرة، ثم مالبثت أن سمعت نباحا رهيبا وصوتا يصرخ:

«كارلو، قف مكانك.»

خمد الكلب وهو يئن أنيناً خافتاً ورقد تحت قدمي جين، أخذت تبحث عن زر المشعل ثم أضاءته لتجد غافن غرانت يتقدم نحوها في خطى واسعة.

٢ ـ اللقـــاء

هل ارعبك الكلب؟ لا تخافي فهو لن يؤذيك

كان قلب جين يخفق بسرعة وهي تواجه الرجل الضخم الذي كرهته من النظرة الاولى:

«هل يقفز هكذا دائماً في وجه الناس؟»

«لا، انه لا يفعل ذلك. لكنه أيضاً لا يرى عادة أي شخص في هذه الساعة المتأخرة من الليل.»

كان صوته هادئاً، وكان يمكن أن تجده جذاباً ولكن بسبب ما حدث، أحسّت جين بكيانها كله ينفر من الرجل.

قالت وقد استدارت عائدة الى منزل أبيها.

«على أن استأذنك قبل أن أتمشى في الليل ثانية.»

«أتقطنين هنا ؟»

«نعم، طابت ليلتك.»

«اذاً، أنت ابنة جون ؟»

استدارت نحوه. وقالت :

«نعم أنا إبنته.»

كانت جين ترتجف لكنها كانت واثقة أنها اذا استمرت تتحدث الى الرجل فانها ستقول شيئاً تأسف عليه. لم تكن تفهم سبب التأثير الغريب لذلك الرجل عليها ولكنها كانت تعرف تماماً أنها لم تلتق من قبل شخصاً آخر يستطيع أن يثير فيها مشاعر الغضب مثل هذا. راعها بل أفزعها أن تكتشف أنها وهي الهادئة المتسامحة، قادرة على الاحساس بمثل تلك الكراهية.

«أنا غافن غرانت ، جار أبيك يا آنسة ريتشي . آمل أن نلتقي ثانية في مناسبات أفضل من هذه. هل أصحبك الى المنزل؟»

«لا شكراً، يمكنني أن أتدبر الامر ما دمت قد ابعدت كلبك.»

إستدارت جين وسارت في اتجاه باب المنزل. وخيل اليها أنها سمعت صدى هازئاً لكلماته. لقد كان هناك شيء آخر في صوته غير ذلك الاحساس بالدهشة ـ كان هناك خيط دقيق من الاحتقار. وأحست جين وكأن وجهها يشتعل وسط الظلمة الباردة كيف يجرؤ أن يتحدث اليها هكذا؟

استغرقت جين في النوم حتى ساعة متأخرة من النهار. نهضت ونزلت مسرعة الى الطابق الاسفل يخامرها شعور بالذنب لتأخرها متلهفة في الوقت نفسه الى لقاء أبيها. وعندما إقتربت من غرفة الجلوس الفسيحة توقفتْ عند سماع أصوات في الداخل. ان لديه زواراً. أصلحت جين من شعرها. كانت ترتدي ثوباً بسيطاً حاكته بنفسها من القطن الأزرق بلا أكمام. وقفت جين أمام الباب في توتر ثم طرقته ودلفت الى الداخل.

استقبلها أبوها بذراعين ممدودتين قائلاً:

« جين يا عزيزتي، اطلعت على تفاصيل مغامرتك.»

أيقنت جين دون أن تلتفت أن الرجل الواقف أمام المقعد المواجه لأبيها لم يكن سوى غافن غرانت.

«طاب صباحك يا آنسة.»

التفتت جين تجاهه وظلت ممسكة بيدي والدها.

«طاب صباحك يا سيد غرانت .»

كانت تلك هي المرة الأولى التي تراه فيها بوضوح. رأت عينيه رماديتين تتفحصانها بهدوء. كان وجهه صارماً وذقنه مربعة متجهة بعمق الى الأسفل. شعره الداكن الأملس الذي كان يعلو جبهته بتنسيق جيد كان أطول قليلاً من المعتاد. أما فمه كان واسعاً فيه لمسة قسوة. مدّ لها يده محيياً فأمسكت جين بها على مضض وأحسّت بقبضته القوية. حدّثتها غريزتها بأنه رجل قوي خطير وأن هناك كراهية مقنعة من جانبه تجاهها تثير قلقها وحيرتها في آن.

قال أبوها وهو يضغط على يدها:

«لندع الرسميات جانباً. أليست جميلة يا غافن؟»

أحنى غافن غرانت رأسه قليلاً بقدر من الافتعال:

«بالطبع جئت لأعتذر عما حدث بالأمس، يا جين.»

«ليس هناك داع للاعتذار. فكل شيء على ما يرام.»

جلست جين تستمع الى حديث الرجلين وهي تشعر بأنها تريد مغادرة المكان لقد سيطر غافن على الجو كانت تشعر بعينيه مثبتتين عليها حتى من دون ان تنظر اليه. وأحست بغصة : كان في الثلاثينات

من عمره، ذا مظهر قوي يوحي بأن لديه القوة الكافية لسحقها اذا أراد ذلك. وبعد جهد تمكنت جين من أن تقول، منتهزة فرصة من الصمت:

«سأذهب لأتناول فطوري يا أبي فانا لا أحب أن أدع إلين تنتظر. فاسمحا لي.»

وقفت واتجهت صوب الباب، فتحرك غافن ليفتح لها الباب.

«شكراً.»

تبادلا النظرات. كان هناك ذلك الاحساس العدائي، وبرغم أنه كان مقنعاً بصورة بارعة، الا أنه كان واضحاً تماماً لجين .وتضايقت. لماذا يكرهها؟ ليس لديه اي مبرر لذلك. اتجهت جين ناحية المطبخ وهي تشعر بالقلق لتطور الأحداث.

يبدو أنها نسيت كل شيء الآن وهي تسير ببطء مع أبيها في الحدائق الشاسعة المحيطة بالفيلا وسمعت هدير البحر، فاستدارت نحو ابيها وقالت:

«لم أعلم أننا قريبون من البحر الى هذا الحد.»

«للأسف أننا لا نراه من المنزل، ولكن ليس في وسع المرء أن يمتلك كل شيء. ان غافن يقيم أحياناً حفلات على شاطىء البحر. أريد أن ادلي بعض الملاحظات في هذا الصدد.»

«لا توجهها الي أرجوك، فليس لي شأن في هذه الأمور.»

«هل افهم من ذلك ان هناك بعض الفتور بينكما.»

«أنا آسفة يا أبي. لم أقصد ذلك.»

« لا تكوني عصبية الى هذا الحد. فقد كنت أهزل معك فقط. أنا أعرف

تماماً أنه مستبد الى حد ما. لكنك ستجدينه شخصاً رائعاً عندما تزداد معرفتك به.»

كان واضحاً أن والدها معجب بغافن غرانت فهو جاره وصديقه أيضاً. أما هي التي وصلت بالأمس فهي مجرد دخيلة. كيف يمكنها أن تتجرأ وتقول انها تجده متعجرفاً للغاية وانها لن تنسى أبداً تصرفه في المطار.

ابتسمت وقالت :

«أنا واثقة من أنه لطيف للغاية. كنت بلهاء. أرجوك دعنا ننسى ذلك. أريد أن أعرف الكثير عنك. لماذا لم تشر الى لوحاتك في رسائلك اليّ؟»

تنهد جون وقال:

«روت لي إلين ما دار من حديث بينكما أمس. أنا لم أشر الى ذلك لأني أردتك أن تحضري لرؤية والدك، وليس لرؤية رسام سخيف.»

«كنت سأحضر في كل الاحوال.»

جلس جون و جين في أريكة تحت ظل نخلة طويلة، صدر حفيفاً كان الهواء مثقلاً برائحة نبات الياسمين البري. كل شيء فيه لمسة جمال زاهية فأحست جين بالراحة وقالت:

«ما تخيلت أن يكون كل شيء رائعاً هنا...»

وفجأة غيّرت مجرى الحديث وقالت:

«لم أكتشف انك كنت تراسلني إلا منذ شهر فقط.»

«كنت أعرف أن دورثي تكرهني لكني لم أكن اتصور أبداً أنها ستنحط الى هذا الحد. وعندما كتبت الي.»

«هل كتبت اليك؟»

«نعم! لا تقولي لي أن ذلك كانْ دون علمك.»

«متى كان ذلك فانا لا أعلم شيئاً ؟»

«منذ حوالي عامين عندما استقر بي المقام هنا. كتبت لتطالبني بأن أكف عن ازعاجك وانك لا تريدين سماع أي شيء يتعلق بي وانني اضيع وقتي هباء في الكتابة اليك.»

ارتعشت شفتا جين وهي تقول:

«لا ـ لا لكنك واصلت الكتابة بعد ذلك؟»

«لم يكن أمامي حل آخر. فكرت أنك في يوم ما ستصفحين عن انسان عجوز.»

قالت والدموع في عينيها:

«لا تقل ذلك أرجوك. أنا لا أفهم يا أبي لماذا كانت تفعل ذلك، وربما لن أفهم أبداً. ولكني أقسم أنني كنت سأكتب ولو وصلتني رسالة واحدة منك.»

«أعلم ذلك الآن يا طفلتي. دعيني أقول لك شيئاً آخر قبل أن ننهي هذا الموضوع.عندما تركت امك، كان ذلك لأنها طلبت مني أن أرحل.لقد أحببتها لكني أدرك الآن بعد ما فكرت في الأمر طوال تلك السنوات أن دورثي هي التي أثارتها ضدي. انها بشكل ما المتسببة في انفصالنا وأنا أعلم الآن لماذا فعلت ذلك؟»

تساءلت جين ببطء :

«هل كانت تحبك؟ »

«نعم، أتصور ذلك. التقينا منذ عشرين سنة في سانت ايف أثناء العطلة الصيفية. كنت في الخامسة والثلاثين من عمري وكنت فقيراً

أحاول أن أمارس هواية الرسم لكني لم أكن قد حققت شيئاً بعد. ثم التقيت دورثي وشقيقتها. كانت دورثي في الثلاثين من عمرها وكانت والدتك تصغرها بخمس سنوات. تعارفنا وأخذنا نتبادل أطراف الحديث كما يفعل الناس عادة في عطلاتهم. كانت دورثي هي الأخت المسيطرة. أما لوسي والدتك فقط شدتني كثيراً. خرجنا معاً عدة مرات، أحياناً مع دورثي ، وأحياناً أخرى بدونها اذا تمكنا من ذلك. أعتقد أنها ظنت أنه من الطبيعي أن أرغب فيها ما دامت هي الأقرب لي سناً. وعندما طلبت من والدتك أن تتزوجني كنت صريحاً معها. قلت لها اني سأبحث عن عمل لكن الرسم هو طموحي الكبير وتفهمت أمك ذلك بعكس دورثي.»

استطرد محدقاً أمامه في لا شيء، وكأنه يعيش الماضي من جديد:

«كان منزل الأسرة كبيراً يكفي لعدة أسر، والأختان كانتا تقطنان فيه وحدهما منذ وفاة جدك. فكان من الطبيعي أن نعيش أنا و لوسي في المنزل نفسه بعد زواجنا. قسمنا المنزل في الواقع الى قسمين. في بادىء الأمر عشت في سعادة مع لوسي.»

توقف عن الكلام وقد شاعت في عينيه نظرة ألم، ثم قال:

«بدأت دورثي في اثارة المتاعب. كانت لوسي تنتظر مولودها الأول ـ وربما أثار هذا غيرة دورثي لأنها أدركت أن فرص زواجها تخف، مع مرور السنين. بعد مولدك تحسن الوضع قليلاً، فقد شغلت لوسي بك. وعندما كبرت وقعت أمك أكثر فأكثر تحت تأثير دورثي . فقد كنت خارج المنزل معظم الوقت حيث كنت أعمل كرسام في أحدى شركات الاعلان. ولم يكن أمامي الا أن أمارس هواية الرسم أثناء

عطلتي الاسبوعية. وهكذا كان لدى دورثي كل الوقت لتؤثر على والدتك، نجحت في ذلك. في بادىء الأمر كانت تستثيرها بتوافه الأمور: انه يقول انه يعمل حتى وقت متأخر في المكتب، لكن جميعهم يقولون هذا، أليس كذلك؟ ثم بدأت تقول لها انه يفكر في عمله أكثر مما يفكر فيك ـ وهكذا باتت لوسي تشكك في تصرفاتي. وعندما كنت في السادسة من عمرك، دب شجار بيننا في أحد الأيام ووصل الى سمعك. ووجدتني محطماً وأنا أرى وجهك لأنني كنت أعرف تماماً تأثير ما يحدث. طلبت من لوسي أن نرحل لنعيش ثلاثاتنا في منزل مستقل لكنها طلبت مني أن أرحل بمفردي.

ثم اتكأ برأسه على يديه في تأثير عميق، واستطرد بصوت هادىء:

«وهكذا رحلت.»

طوقته جين بذراعيها قائلة :

«كفى يا أبي.»

سارا في بطء عائدين الى المنزل. كانت جين تعرف أن الافصاح عن الحقيقة نفعه وأكسبه راحة البال.

في أمسية ذلك اليوم اطلعها جون على سيارته التي ظلت دون استخدام طوال ستة أشهر . كانت من طراز فورد تاونس لونها أزرق فضي. وبادرها متسائلاً :

«هل تعرفين قيادة السيارة يا جين ؟»

هزت رأسها نفياً.

«أتحبين أن تتعلمي؟»

«لا أدري، أعتقد ذلك، لكني لم أحاول.»

«سأطلب من غافن أن يعلمك.»

وعندما لاحظ ردة فعلها قال:

«آه لا ؟ آسف هناك ميغان أو ابنها كولن أنا واثق أنه سيسعد بذلك.»

في تلك الأمسية، وبعد أن تناولا العشاء، جلست جين مع والدها يتجاذبان أطراف الحديث. بادرها جون :

«اذهبي واحضري الغيتار وعدتني بأن تعزفي لي.»

أحضرت الغيتار وجلست القرفصاء على أرض الحجرة الخشبي اللامع. داعبت أوتار الغيتار بطريقةمرتجلة لعدة دقائق ثم بدأت إحدى أغنياتها المفضلة. بدأت تغني دون خجل بعد أن التقطت نغمات ذلك اللحن الحزين.

لم تكن تدرك كم كان منظرها فاتناً وهي تجلس على أرض الحجرة وقد استرسل شعرها الأسود الداكن في تحرر ـ وانكبّ وجهها على الآلة الموسيقية، تحتضنها بلطف. نسيت نفسها في عالم تحبه، عالم الألحان. أخذ والدها يرقبها مأخوذاً وهو يستمع الى صوتها الحلو الواضح النقي والى النغمات التي تتناثر في جنح الليل.

وفجأة جاء صوت من ناحية النافذة ودخل غافن غرانت الغرفة وقد ثبت عينيه على جين وقال بصوت هادىء:

«كان هذا رائعاً.»

جذبت نفسها بمشقة، وقفزت وقد استعادت وعيها فجأة. استدار جون قائلاً:

«أوه غافن منذ متى وأنت هنا؟»

«كنت على وشك أن أطرق الباب حين سمعت الغيتار. تصوّرت أنك أنت يا جون الذي تعزف، ولذا فقد اتجهت الى الواجهة الخلفية لأستمع في صمت.»

واستدار نحو جين قائلاً:

«أهنئك فأنت تعزفين جيداً.»

«شكراً.»

ونظرت اليه لتحاول ايجاد أي أثر للسخرية في نبراته ولكنه بدا صادقاً.

«اني أحمل دعوة يا جون من سارة ووالدتها.»

رفع جون حاجبيه في دهشة فضحك غافن وقال:

«ستقيمان حفلة يوم السبت وتتمنّيان لو انك تحضر مع جين.»

نظر جون الى ابنته متسائلاً:

«ما رأيك يا جين؟»

تذكرت جين فجأة كلمات ميغان أمس عن حرص ليوني و سارة على رؤيتها خاصة وأن سارة التي تسعى وراء غافن لا ترغب في أية منافسة. كبحت جين ابتسامتها وهي تقول لنفسها إنّ هذا الأمر مسلٍ. ليتهما تعلمان أنها لا تشكل عليها أي خطر. فالكراهية متبادلة برغم أنه بدا ظريفاً عندما امتدح عزفها على الغيتار.

رفعت جين رأسها عن الغيتار قائلة:

«ان هذا يبدو ظريفاً للغاية.»

التفت غافن اليها. ترى هل استطاع أن يقرأ أفكارها؟ ان لديه نظرة رمادية ذكية ثاقبة. وأدركت جين فجأة أن عينيه جذابتان

للغاية. قال:

«سأبلغهما بموافقتكما على الذهاب وستذهبان في سيارتي. والآن وقد اتفقنا، اسمحا لي بالذهاب.»

«يجب أن تشرب شيئاً.»

أحضرت جين المرطبات ثم جلست. رفع غافن حاجبه متسائلاً:

«ألا تشربين معنا؟»

«لا شكراً.»

رفع غافن كأسه قائلاً:

«في صحتكما.»

في تلك اللحظة دخلت إلين الحجرة قائلة:

«جاءت السيدة ديفز يا سيد ريتشي.»

دخلت ميغان ، ومعها شاب طويل وسيم أشقر لا يمكن أن يكون إلا إبنها نظراً للتشابه الكبير بينهما.

قامت ميغان بمهمة التعارف بينهما، احتفظ كولن بيد جين لفترة أطول من اللازم ثم ابتسم قائلاً:

«مرحباً يا جين.»

«أهلاً بك يا كولن.»

أحست بتورد وجنتيها خجلاً. ترك كولن يدها على مضض واستدار نحو غافن الذي أحست جين أنه كان يرقبها وقد علت شفتيه بسمة ساخرة.»

«مساء الخير يا غافن ، لم أرك من قبل.»

«لاحظت ذلك.»

كانت نبرة غافن جافة أحست بالدماء تصعد الى وجهها. كيف يجرؤ على مراقبتها. حدثت جين نفسها بذلك مضيفة نقطة جديدة الى أخطاء ذلك الرجل. استطرد غافن:

«وفرتما عليّ جهداً. فقد طلبت ليوني مني أن أدعوكما الى حفلتها يوم السبت.»

نظر كولن الى جين متسائلاً:

«هل ستذهبين ؟»

«نعم سأذهب.»

«أيوافقك هذا يا أمي؟»

ابتسمت ميغان للجميع قائلة :

«بالطبع. ستكون مناسبة شيقة للغاية.»

جلس الرجال الثلاثة معاً وجلست ميغان و جين في مقعدين متلاصقين وبذلك تمكنتا من تبادل أطراف الحديث دون أن يسمعها أحد. قالت ميغان بصوت منخفض:

«أتذكرين يا جين ما قلته لك؟»

«نعم أذكر.»

«هل لي أن أعطيك نصيحة؟»

«بكل تأكيد أرجوك.»

«إستمعي جيداً. الذين سيحضرون الحفلة سيكونون غاية في الفتنة والاناقة. وأنا واثقة من أنك ستستمتعين بتلك الأمسية ولكنها لن تكون مجرد حفلة... انها ستكون جلسة تقييم. أنا أسفة أن أقول ذلك

بطريقة فجة ولكن دعينا نصعد الى حجرتك لانتقاء ما يمكن أن ترتديه في تلك الحفلة.»

قالت الجملة الأخيرة بصوت مرتفع كمبرر لانفرادهما. وفي غرفة جين في الطابق الأعلى خلعت ميغان حذاءها وجلست على حافة السرير قائلة :

«آه هكذا أفضل.»

بدأت تضحك بصوت جذاب ثم نظرت الى جين وهي مستغرقة في التفكير ثم قالت :

«أعتقد أننا سننسجم معاً.»

«تتحدثين بشكل يوحي بأنك ما كنت تتوقعين ذلك.»

عكست نبرة جين حيرتها. فهناك شيء لم تفهمه في قول ميغان.

هزت ميغان رأسها وقد شعرت بالضيق:

«أنا أسفة ، لقد أوقفتني عند حدّي.»

استطردت جين بلهفة :

«لا تعتذري، فانت على حق. سأقول لك شيئاً الآن.»

«أنا دائماً أعترف بخطأي وقد ارتكبت خطأ في حقك دون قصد؟»

انتظرت جين في صمت. فقد أدركت أن كلماتها غير المتعمدة فجرّت شيئاً سيفسر لها ما كان يحيرها إزاء عدة أشياء.

أغلقت ميغان عينيها ثم استطردت :

«عندما أبلغنا أبوك أنك ستأتين بعد كل تلك السنوات اعتقدنا كلنا انك جئت من أجل ان...»

ترددت قليلاً فاستحثتها جين:

«استمري ارجوك.»

«ظننا أنك جئت فقط بعد أن عرفت أن أباك رجل ثري ولذلك فقد اتيت لتأخذي كل ما يمكن أن تحصلي عليه. اعتقدنا بأنك تجاهلت أباك كل هذه المدة. والآن بعد أن مرض وتوقف عن الرسم الأمر الذي زاد بصورة تلقائية من قيمة لوحاته، قررت الحضور. ولذلك استغربت كثيراً عندما تملكتك الدهشة لدى رؤيتك منزل أبيك. عرفت من وجهك أنك كنت صادقة وحين ذاك بدأت أفكر في أننا كنا على خطأ.»

جلست جين في صمت. كان هناك شيء آخر يجب أن تعرفه فأردفت:

« ميغان لقد استخدمت عبارة كنا فمن انتم؟»

«كلنا يعني أنا وغافن »

«اذن هذا هو السبب!»

«السبب في ماذا؟»

استدارت جين وقالت :

«عندما التقيت غافن ، بدا وكأنه يكرهني. لم أعرف لماذا يحمل لي هذا الشعور وتصورت أنه كذلك مع الجميع ولكني الآن فهمت. يظنني أسعى وراء المال وكل ما أستطيع أن أحصل عليه. سأخبرك كل شيء.»

وبدأت جين تروي القصة كلها وكيف اكتشفت وجود أبيها مصادفة وقول خالتها دورثي ان أباها يسكن في كوخ على الشاطيء.

عندما أنهت جين قصتها ساد صمت مطبق، وأخيراً قالت

ميغان:

«يا طفلتي الصغيرة المسكينة، ماذا استطيع أن أقول؟»

«لا تقولي شيئاً. اردت أن تعرفي كل شيء كي لا تخطئي في حكمك عليّ.»

«أوه يا عزيزتي، عندما أخبر غافن بالحقيقة فانه...»

قاطعتها جين :

«لا. لا أريدك أن تخبريه.»

«لكن لماذا؟»

«لأني أحتقره. أنه يتصور أني أسعى وراء المال اذن دعيه يستمر في هذا التصور. أنا لا أهتم برأيه. فهو متعجرف مستبد ـ وأنا لا أظن أني كرهت شخصاً قدر كرهي له في حياتي. أنا أعرف أنه صديق أبي ولهذا السبب فقط سأحاول أن أكون مهذبة معه، عشت ست سنوات مع خالة تشبهه الى حد كبير وتحملتها طوال ست سنوات وفي وسعي أن أتحمل ذلك الرجل غافن غرانت الى حين.فاذا لم يتعلم كيف يحكم على الناس بما يتفق مع حقيقتهم وليس كما يراهم هو، فأنه بالنسبة الي شخص لا يستحق المعرفة.

تبادلت المرأتان النظرات. كان في عيني جين تحدٍ شجاع لم يكن في مقدور ميغان الا أن تعجب به. ابتسمت ببطء قائلة وهي تتلفت في أرجاء الغرفة:

«جئنا أصلاً لنتحدث عن الحفلة.»

ضحكت جين قائلة :

«ان هذا سيبدو الآن مصطنعاً. ألم تكوني تنوين تحذيري من أن

سارة تعتبرني منافسة لها. ان هذا لا يمكن أن ينطبق علي بعد كل ما قلناه.»

«ليس هذا هو كل ما أود أن أقوله. ان سارة برغم سحرها وجمالها ستحاول ببراعة أن تجعلك تبدين كالبلهاء. وهي ستستخدم لذلك اسلوبين: إما أنها ستتصل بك تليفونياً قبل يوم السبت وتطلب منك ألا ترتدي أي شيء نفيس مؤكدة أن أي ثوب بسيط يكفي، او أنها لن تحذرك على الاطلاق وفي تلك الحالة ستذهبين وقد ارتديت أفضل ما عندك في حين أن باقي المدعوات ترتدين ثياباً صباحية بسيطة فتجدين نفسك في زي شاذ.»

«يا للعجب، كم هم أناس ظرفاء...»

ابتسمت ميغان قائلة:

«فعلت ذلك من قبل، ولكن في هذه المرة لن تكوني وحدك. سأقف الى جانبك. الديك ثوب ظريف لترتديه؟»

«ليس تماماً، فخالتي دورثي لم يكن بوسعها أن توفر لي شيئاً ممتازاً، ومن جانبي فقد أنهيت منذ قليل دراستي المتوسطة.»

«أعتقد أننا يجب أن نبحث الأمر مع والدك. فهناك محل تجاري كبير في بورت باتريك هو ملك لغافن بالطبع ويمكننا أن نجد فيه الكثير. ان غافن يملك المحل التجاري الكبير والوحيد في سارامنكا وبالمناسبة هو يملك أيضاً الفندقين الوحيدين فيها. انهما يقدران بثروة. فوالده هو في الواقع الذي وضع سارامنكا على خريطة العالم. وهذا هو السبب الذي يجعل سارة تبذل كل هذا الجهد من أجله. دعيني اسألك هل ستحاولين تلقين غافن درساً؟»

«لا، بحق السماء.»

«حسناً. فانا كنت سأحذرك من ذلك. فهو صلب للغاية وفي وسعه أن يكون قاسياً وأي شخص دخل معه في صراع يمكنه أن يقول لك ذلك.»

ولكن هل ان ما قالته ميغان صحيح؟ لم تكن جين تعرف بالضبط كيف ستتصرف ازاء غافن وشعرت بما يشبه الدوار وهي متجهة الى غرفتها تزدحم في رأسها الآف الأفكار.

٣ ـ الدعوة

كان اليوم التالي يوم جمعة. ابلغت إلن جين ان هناك من يريدها على التليفون ولما التقطت السماعة سمعت سارة تقول:

«أهلاً بك يا جين، أنا وأمي نشكرك لقبولك دعوتنا ونتوق الى رؤيتك، فالحياة هنا يشوبها بعض الملل لذا فمن الممتع أن نرى وجهاً جديداً. اتصلت بك في الواقع لأبلغك ألا تشغلي نفسك بما سترتدينه غداً. فالحفلة غير رسمية. ألا تظنين أن هذا سيكون أفضل؟»

وفكرت جين بتحذير ميغان. لم تصدق أن الخداع يصل بالبشر الى هذا الحد. ربما تكون سارة، تلك المخلوقة العذبة الصوت عبر التليفون، مناسبة جداً لغافن. فهما من نوع واحد.

أنهت جين المكالمة وهي شاردة الذهن ثم بادرت بالاتصال بميغان واطلعتها على اتصال سارة.

تذكرت جين شيئاً وهي تنتظر وصول ميغان. لقد قام غافن بابلاغ تلك الدعوة مساء أمس، فهل اتصل تليفونياً بسارة لابلاغها أم أنه ذهب بنفسه لرؤية سارة. لم يكن الأمر مهماً.

وبرغم ذلك وجدت جين نفسها تفكر فيه.

بعد نصف ساعة فقط كانت جين وميغان تعبران طريق فسيح يؤدي الى الطرف الآخر من الجزيرة. كانت ميغان تبدو نضرة جذابة وهي ترتدي سترة بيضاء بلا أكمام فوق بنطلون أزرق بينا شدّت شعرها الى الخلف بوشاح من القماش الخفيف أما جين فقد ارتدت ثوباً تقليدياً من الترلين الأزرق الذي كان خفيفاً بالنسبة لجو انكلترا، أما هنا فهو يشيع فيها الدفء بدرجة غير مريحة تحت حرارة شمس الصباح. لاحظت ميغان ذلك فقالت:

«الأقمشة الصناعية لا تلائم جو سارامنكا، القطن أفضل. وقد أعطانا والدك حرية التصرف ولذا سنشتري ما يناسبك في هذا الجو الحار.»

«أنا أشعر بالذنب لأني أنفق من حسابه الخاص. سأحرص على ألا أنفق كثيراً.»

«قال لي أن تشتري كل ما تطلبين. إنه سعيد بهذه الفرصة، صدّقيه يا جين.»

وأحست جين بدفقة من السعادة لم يكن حتى التفكير في غافن قادراً على افسادها. أنهما ذاهبتان الى المحل الذي يملكه، لكن ميغان أكدت انه لا يوجد احتمال في لقائه. أضافت ميغان وكأنها تذكرت شيئاً:

«كولن قال لي انه سيحاول ان يلقانا في المطعم الملحق بالمحل لنتناول القهوة. إنه مأخوذ بك الم تلاحظي ذلك؟»

«بماذا أجيب من غير أن أبدو مغرورة؟»

«لا تقولي شيئاً. ولكن علي ان أحذرك أن كولن يحب مغازلة الفتيات وقد يفيده أن يلتقي فتاة مثلك.»

«سأحاول أن أتذكر ذلك.»

وتساءلت جين :كيف سيكون موقف ميغان إن هي عرفت ان جين لم تصادق أي فتى حتى الآن. لقد أدت الخالة دورثي دورها جيداً وتمكنت من أن تغرس في جين شكوكاً جعلتها غير واثقة من نفسها. وهي الآن تشعر باحساس جديد بعدما عرفت أنها قادرة على أن تثير انتباه الرجال.

كان لون السماء يقترب من البياض والضوء براقاً. وعلى جانبي الطريقَ اشجار النخيل التي قد لا يخلو مكان منها في الجزيرة. ومن على بعد ترتفع الجبال بانسياب، زرقاء باهتة. أخذت جين نفساً عميقاً وهي تهمس:

«هذا المكان رائع.»

«ولذلك فهو مكتظ بالسياح خاصة في بورت باتريك . فكل أسبوعين ترسو سفينة في الميناء وينزل ركابها الى الشاطيء، وهم ينفقون أموالاً كثيرة في شراء القطع المفرزة والأعمال الخشبية المحفورة. ولكن بصفة عامة يسود الهدوء الجزيرة، وأنا أحبها هكذا كما أن غافن ينوي الحفاظ على هذا الطابع.»

حدثت جين نفسها قائلة ـ أوه هذا الرجل ثانية ! أليس هناك مفر من ترديد آرائه!

اقتربنا من المدينة. فأصبحت المنازل أكثر التصاقاً وأصغر حجماً. وبدأت الحدائق تتراءى لها غنية بالألوان مضفية سحراً على

المدينة. بدت من على بعد المياه لامعة مندفعة في خليج فسيح يطل على منحدر أوصلها الى الطريق الرئيسي في بورت باتريك ، لتجدا منطقة ملأى بالمحلات التجارية وأناساً من كل شكل ولون ذاهبين لشراء حاجاتهم من دون ازدحام في السير كما هي الحال في المدن.

التفتت ميغان الى جين متسائلة :

«الى متى تنوين البقاء في سارامنكا يا جين؟»

«كنت أنوي البقاء شهراً ولكن»

توقفت جين فجأة.

«هل طلب منك أبوك أن تبقي معه فترة أطول؟»

«نعم.»

«وهل ترغبين في ذلك؟»

«بالطبع أريد ذلك، لكن »

«ولكن لديك بعض الأسباب التي تدفعك للتردد. أهي خالتك ؟ أم صديق لك؟»

ضحكت جين قائلة :

«لا. ليس هناك صديق لكني وعدت خالتي بأن أحاول أن أعوضها بعض ما أنفقته علي.»

قاطعتها ميغان وقد تورد وجهها ربما بفعل تهورها في الكلام:

«أنت لست مدينة لها بشيء. أنا آسفة يا جين ، ليس هذا من شأني ولكن حقيقة...»

ابتسمت جين وهي تقول :

«أنا أعلم. لكن كل ما في الأمر أنها امرأة وحيدة بائسة.»

«انتظري أسبوعاً أو أكثر ثم قرري.»

انحرفت بسيارتها في طريق فرعي ثم أدخلتها موقفاً للسيارات وراء مبنى كبير عصري.

كانت هناك لافتة ضخمة كتب عليها بحروف حمراء «محلات غرانت» كان الجو رطباً داخل المحل الذي يسوده جو من الهدوء والأناقة . كان الطابق الأرضي مخصصاً للمأكولات حيث كانت الثلاجات الضخمة ملأى بكل ما يمكن تخيله من أنواع الطعام. اقتادت ميغان جين الى المصاعد لتنطلقا الى الطابق الثاني. هناك غاصت قدما جين في سجادة حمراء سميكة.

انقضت الساعة التالية في التطلع والبحث وتجربة الثياب والضحك أيضاً. لم تكن جين تتصور أن شراء الملابس يمكن أن يكون ممتعاً الى هذا الحد. فمع خالتها كان يتمّ ذلك وكأنه عمل روتيني يجب أن ينجز في اسرع وقت وأقل كلفة ممكنة. أما مع ميغان فالتجربة لذيذة، فيها شيء من روح المغامرة.

وأخيراً وجدتا الثوب المنشود. كان بسيطاً جداً، أو هكذا بدا. مجرد ثوب مسترسل حتى الأرض في خطوط ملساء دون أية زركشة، حريري ذي لون ناري براق بلا أكمام أما فتحة الرقبة فقد كانت مستديرة منخفضة الصدر والظهر مطرزة بشريط حريري بني اللون على شكل أزهار صغيرة داكنة.

لم تكن جين في حاجة الى رؤية وجه ميغان المذهول لتعرف أنها تبدو جميلة. قالت ميغان في اعجاب:

«ما هذا يا جين ، تبدين رائعة.»

«نعم يا امي انها تبدو كذلك.»

استدارت جين بسرعة لتجد كولن يخطو نحوهما. كانت عيناه تحدقان في جين وحدها وأحست بالدماء تتدفق الى وجهها.

«ماذا تفعل هنا كان من الواجب ان تكون في العمل.»

«انها الحادية عشرة فترة الراحة. جئت ادعوكما الى تناول شراب منعش.

«هلمي يا جين اذهبي واستبدلي ثيابك. سنجرب ما تبقى من الفساتين في ما بعد.»

خلعت جين الثوب وارتدت ثوبها القديم. كان قلبها يخفق بسرعة لم ترتد مثل هذا الثوب المثير من قبل. فقد شعرت بأنها شخص آخر أثناء الدقائق القليلة التي ارتدت فيها الثوب. أحست بأنها جميلة تقريباً. نظرت الى نفسها في المرآة مكشرة عن وجه ساخر في محاولة لاعادة نفسها الى حالتها الطبيعية وهي تهمس يا لك من فتاة مغرورة» ولكن برغم كل هذا ظل في اعماقها وهج دافيء. وعندما جلسوا ليتناولوا قهوة مثلجة وقليلاً من الكعك رأت ميغان تنظر اليها غير مرة على نحو يوحي بأنها تشاركها في الحفاظ على سر ما.

تساءلت ميغان في احدى فترات انقطاع الحديث:

«أين غافن الآن؟»

«ذهب الى أحد الفنادق ليحضر اجتماع عمل.»

«الأفضل ان تعود الى عملك، فلدينا أنا وجين كثير من العمل.»

«انها تحاول ان تتخلص مني.»

«إنك تجعلني أبدو وكأنني دكتاتورة.»

قالت جين في نفسها : من الواضح أن هناك رابطة حب قوية

تجمع بينهما. تمنّت فجأة أن تذهب معها الى الحفلة بدلاً من غافن .
كانت تعرف أنها ستكون أكثر ثقة بنفسها اذا ما وصلت الى هذا الحشد وسط أصدقاء بدلاً من أن يرافقها ذلك الرجل الذي ينظر اليها بطريقة تخيفها. فرغم تأكيداتها لميغان انها لا تأبه لآراء غافن، فهي تعلم تماماً أنها تخشاه. حتى ذلك التغيّر الذي لمسته فيه عندما فاجأها وهي تعزف على الغيتار، كان مقلقاً بدوره. فهو رجل عميق شخصيته معقدة تمنّت جين لو أنها لم تقابله.

أحست أن ميغان و كولن ينظران اليها فضحكت قائلة :

«أسفة لقد كنت أفكر في ثوبي الجديد.»

ابتسم كولن وقال:

«لو كنت مكانك لما قلقت فذلك الثوب البرتقالي سيفرض نفسه في الحفلة.»

«الثوب ليس برتقالياً يا عزيزي، لونه ناري غريب.»

«آسف يجب أن تعذرا جهل الرجال. والآن اسمحا لي بالذهاب. مرّا على مكتبي قبل أن تغادرا المتجر لتتسلما المشتريات موضبة.»

قالت ميغان وهما في طريقهما الى الطابق الاسفل من المحل:

«هل تسمحين لي بأن أصفف شعرك غداً؟»

نظرت نحوها جين مذهولة:

«ولكن ـ أنا»

«أرجوك يا جين .سأبوح لك بسر. لقد كنت أعمل منذ سنوات عند أحد المزينين ـ أقصد قبل أن أتزوج. كنت أتمنى أن تكون لي ابنة أفعل لها كل هذا. أرجوك يا جين . قولي إنك موافقة.»

«سأكون غاية في السعادة.»

تأبطت ميغان ذراع جين حتى وصلتا الى باب عليه لافتة تقول خاص بموظفي المتجر.

دلفتا الى ممر فيه مجموعة من المكاتب ينبعث منها طنين آلات تكييف الهواء، وأصوات الالآت الكاتبة وطرقتا الباب الأخير.

«تفضل.»

دخلتا مكتباً فخماً مكيفاً لتجدا أن الشخص الجالس وراء المكتب لم يكن سوى غافن غرانت.

« ميغان وجين ! هذا لقاء غير منتظر.»

«أنا آسفة يا غافن ، تصوّرت أنّ كولن هنا. جئنا نأخذ حاجيات جين فقد قال إنها ستكون جاهزة في مكتبه.»

«آه فهمت. عدت منذ قليل وهو ذهب لمعالجة بعض الأمور المتعلقة بالمتجر. أعتقد أن هذا هو ما تبحثان عنه.»

رفع صندوقاً ضخماً وضعت فيه مشتريات جين تعلوها فاتورة حساب. رمقها بسرعة ثم قال:

«الفاتورة محولة على حساب جون الخاص. سأحمله الى السيارة.»

أحست جين وهي تمر من أمامه بعينيه مثبتتين عليها وشعرت بحرارة في عنقها انه يظن بكل تأكيد أنها بدأت تنفق اموال أبيها. رفعت رأسها عالياً وهي تغادر المكتب. ان هذا سيعطيه مبرراً جديداً ليشعر نحوها بمزيد من الاحتقار.

وبفعل الحرارة والوهج الشديد أحسّت جين بوخزة في جفنيها ومرارة في حلقها وبانبهار في عينيها جعلها تضع نظارتين واقيتين من

الشمس.

قالت ميغان وهي تبحث عن مفاتيح سيارتها:

«شكراً يا غافن سنراك غداً عند سارة.»

«الى اللقاء.»

فتح باب السيارة لميغان فأسرعت جين الى الباب الثاني. وقد قررت ألا تنتظره حتى يفتح لها الباب بدورها، اذا كان ينوي ذلك.

تبادلوا التحية وانطلقت بها السيارة. نظرت جين الى الوراء لتجد غافن يرقب السيارة ويعلو وجهه تعبير غامض، بادرتها ميغان قائلة :

«أعتقد أنني عرفت ماذا تقصدين بكلامك عن موقف غافن منك.»

«هل لاحظت ذلك أيضاً؟»

«نعم كان في وسعي أن أحس. يا للرجال كم هم بلهاء!»

«ليس هناك شك في أنه فكر وهو يتفحص الفاتورة كيف أنني أسرعت الى انفاق أموال أبي.»

«أتمنى لو تركتني أقول له الحقيقة.»

هزت جين رأسها قائلة:

«دعيه يفكر كما يحلو له.»

كانت جين تزداد توتراً كلما اقترب موعد الحفلة. فرغم تأكيدات ميغان لها من أنها تبدو فاتنة فهي تعرف أنها تعوزها الثقة الكافية لتظهر أمام هذا الحشد من الناس وكأنها تقف أمام اللجنة الفاحصة في الامتحانات.

كان ابوها قد ذهب ليستريح فترة ما بعد الظهر. وعندما حضرت

ميغان في الخامسة لتصفيف شعر جين نزل لملاقاتها. كان يبدو شاحباً للغاية فصاحت جين:

«هل أنت في خير؟»

«سأكون على ما يرام فلا تقلقي. أنا أشعر فقط بالاجهاد اذهبا الآن وتذكرا أنني أريد أن أرى الثوب لأعطي رأيي فيه.»

في الطابق الأعلى، وبينما كانت جين تغسل شعرها الحريري الطويل جلست ميغان في استرخاء تتابعها، قالت جين :

«مم يشكو أبي بالتحديد؟»

«ان ماك لا يعرف. فبين حين وآخر تفاجئه تلك النوبات فيفقد القدرة على استخدام يديه لعدة ساعات.من الممكن أن يكون السبب بعض الاضطراب العصبي. وهذا هو ما يعتقده ماك وهو يأمل في أن تتمكني أنت من اقناعه بعرض نفسه على أخصائي وبالمناسبة ماك سيكون في حفلة اليوم سأعرفك به وحينذاك يمكنك أن تتحدثي معه في هدوء بينما أجلس أنا مع والدك.»

«اتفقنا.»

جلست جين تجفف شعرها في غرفة نومها وأثناء ذلك أخذت تتجاذب أطراف الحديث مع ميغان . امتدّ حديثهما ليشمل الحياة في الجزيرة :

ميزاتها وسيئاتها. هناك قدر محدود من الفقر في الجزيرة. فسكانها الأصليون يعملون فقط في صيد الأسماك وزراعة الفاكهة والسكر وجوز الهند. هناك أيضاً صناعة الاشرطة الحريرية المفرزة وهي صناعة مزدهرة. فاشرطة سارامنكا تتمتع بشعبية كبيرة بين السياح.

قالت ميغان وقد تذكرت شيئاً:

«يجب أن تشتري بعض تلك الاشرطة المطرزة عندما نذهب الى بورت باتريك مرة ثانية سأساعدك في استخدامها في تطريز ثوب أو قميص للنوم فهي رائعة الجمال وفي الواقع أنه لو كان لدينا وقت كاف لكنّا استخدمناها في حياكة ثوب لحفلة اليوم. كان سيكون مدهشاً، شرائط مطرزة بيضاء، فوق ثوب حريري قرنفلي اللون.»

«فعلت ما فيه الكفاية بالفعل.»

«سندع ذلك للمرة القادمة.»

«والآن حدثيني عن سيئات الجزيرة، فهي لا يمكن أن تكون جنة. حتى لو بدت لي كذلك.»

«نتعرض الى عواصف عنيفة ومخيفة تتخللها أمطار غزيرة وهو أمر مستغرب لجزيرة إستوائية ولكن هذا هو سبب الخضرة الزاهية. كما أننا أحياناً نتعرّض لغزو من أسراب الذباب ولكن ذلك نادر جداً.»

تراجعت ميغان عدة خطوات لتتأمل شعر جين. نظرت جين الى صورتها في المرآة وهي لا تكاد تصدّق ما ترى. كان شعرها الذي ينساب باستقامة عادة على كتفيها مشدوداً الى الوراء ثم الى أعلى وقد ثبتته ميغان ببراعة بدبابيس لينساب بشكل شلال من الشعر الناعم اللامع المتموج ليغطي عنقها.

«هذا عظيم يا ميغان ، أنت حبيبتي حقاً.»

طرقت إلن باب غرفة نومها وقالت :

«لو عرف أبوك أنني هنا لأطاح برأسي. ولكن يجب أن أقول لك فأبوك ليس في حالة تسمح له بالخروج الليلة، هذه هي الحقيقة.»

استدارت جين في فزع وقد نهضت من مقعدها:

«ماذا هناك يا إلن؟»

«لا تقلقي. ولكنه عندما يكون في الحالة التي هو فيها الآن فالشيء الأمثل له هو أن ينام مبكراً ويأخذ قدراً وافراً من الراحة.»

«اذن يجب ألاّ نذهب الى الحفلة؟»

«هذا هو الأمر الذي جئت أحدثك فيه. انه يعرف انك ستقولين هذا وهو عازم على ألاّ يفسد عليك سهرتك الأولى، ولذا سيرفض وسيبذل جهداً لاقناعك الأمر الذي سيزيده توعكاً.»

أومأت جين برأسها وقد بدأت تدرك الغرض من مجيء إلن:

«اذن يجب أن أقول له أنني سأذهب الى الحفلة بمفردي.»

توقفت بعد أن كانت قد اتجهت صوب الباب.

«لا لن أستطيع. كيف أذهب وأتركه يا إلن؟»

«اذا قلت له انك لن تذهبي الى الحفلة، فانه سيسارع الى القول انه ليس مريضاً وانه على ما يرام. انه رجل عنيد.»

هزّت إلن رأسها في أسى واستدارت خارجة من الغرفة وقد تدلّت كتفاها في يأس. أمسكت جين بذراعها قائلة:

«لقد هزمتني.كل ما في الأمر أنني لا اريده أن يظن أنني أردت أن أذهب بمفردي ولكن اذا كان هذا لمصلحته.»

«طبعاً، ان ذلك لمصلحته بالفعل. والى جانب ذلك فانت ستذهبين مع السيد غافن وأبوك متأكد من انه سيعتني بك.»

صاحت جين :

«لا لقد نسيت هذا.»

وعندما رأت إلن تقطب جبينها في حيرة بادرت قائلة:

«أعني أليس الواجب أن نبلغه بهذه التطورات الجديدة؟»

«لا يا عزيزتي سيصل بعد لحظات وهو سيسعد بصحبتك.»

همست جين لنفسها : نعم أنا واثقة من أنه سيسعد بذلك.

أصبح الأمر الآن أكثر سوءاً. أمامها الآن رحلة مرتقبة مع ذلك الرجل ـ هما الاثنان فقط وليس لديها من حديث سوى بالطبع أنانيتها في ترك أبيها المريض وحده. عادت بتكاسل الى المرآة. تمنت لو لم تذهب، لكن ليس أمامها خيار الآن. طالعها وجهها في المرآة وهو أكثر شحوباً من المعتاد، وعيناها واسعتان تلمعان في ضوء المصباح. نظرت لصورتها في المرآة قائلة: استمري، إشعري بالشفقة على نفسك.

ومع تلك الكلمات القليلة الغريبة توصلت الى قرار. دعكت وجنتيها لتعيد إليها لونها ونظرت بتحدٍ الى نفسها. بكل عناية وحذر بدأت جين تضع المساحيق على وجهها دون ان تدرك انها ليست في حاجة الى أي شيء من هذا.

تعثرت جين وهي تهبط الدرجات، فثقتها الجديدة في ذاتها، وليدة التحدّي، تخلّت عنها للحظات عندما سمعت أصواتاً تنبعث من غرفة الجلوس. فضمت شفتيها ووقفت أمام الباب المغلق يمتلكها ذعر مفاجيء. لم تستطع أن تجتاز ذلك الموقف. ولكن عليها أن تفعل ذلك.

فتح الباب علك مصراعيه الموقف. ولكن عليها أن تفعل ذلك.

فتح الباب على مصراعيه فجأة قاطعاً عليها أفكارها رفعت جين يدها الى صدرها وهي تلهث.

ظهر غافن وقد بدا مندهشاً مثلها. ثم تراجع قائلاً:

«أنا آسف.»

كان صوته رابط الجأش واثقاً. نظرت اليه جين للحظات عاجزة عن النطق، لاحظت أنه كان يرتدي سترة بلون الظبي الصغير رائعة الجمال وقميصاً ناصع البياض مبرزاً لونه الأسمر الداكن. كان شعره ممشطاً الى الوراء لامعاً. أما عيناه الرماديتان فكانتا ترقبانها بفتور. أخذت جين نفساً عميقاً ثم ابتلعت ريقها. ها هي الآن مستعدة لمواجهته.

«شكراً.»

قالتها ومنحته بسمة صغيرة وهي تدخل الغرفة متجهة الى أبيها.

«قالت لي إلن إنك لست على ما يرام.»

وضع يده المتعبة فوق ذراعها وجذبها اليه:

«صدقيني، اوامر إلن لا تعصى! لقد قررت أنني لست في حالة تسمح لي بالذهاب. تنتقصني الشجاعة لأتحداها. أنت تعرف إلن يا غافن.»

هز غافن كتفيه وبقي لحظات ثم قال:

«هذه هي الحقيقة. فمن يعصاها يجب أن يكون أشجع منا نحن الاثنين.»

«لم أكن أريد أن أذهب يا أبي عندما أبلغتني إلن أنك»

«اذهبي يا جين . غافن سيوفر لك كل الرعاية. إستمتعي بوقتك. أنت تبدين رائعة الجمال وأنا فخور بك يا عزيزتي.»

«شكراً يا أبي.»

سارت جين نحو الباب كالعمياء، لكنها كانت تعي أن غافن

يقف في انتظارها ممسكاً بالباب.

ساراً نحو واجهة المنزل حيث كانت تقف سيارة المرسيدس البيضاء. فتح لها باب سيارته في صمت. جلست جين وأحست بصدغيها تنبضان بفعل هذا التوتر المفاجيء، وبعدما اقفل باب السيارة خطا نحو مقعد القيادة. وانطلقا.

٤ ـ الحفلة

قاد غافن سيارته برشاقة وسأل جين:

«هل تحبين الاستماع الى بعض الموسيقى ؟»

«نعم ارجوك.»

فكرت أنّ ذلك سيوفر عليها على الأقل حرج فترات الصمت في حوارهما ـ بل ربما لن يكون هناك حوار على الاطلاق.

كان قلبها يخفق. لم يكن خيالها الذي صوّر لها ذلك ولكنّها أحستّ بالفعل وكأنّ توتراً يغمرها بموجات تكاد تكون محسوسة. حدثت نفسها قائلة:

«أنه يكرهني وانا عرفت ذلك فلماذا لا أتجاهل تلك الحقيقة. لم تكن لديها أسلحة مماثلة تقاتله بها عدا سلاح واحد أنوثتها. ففي أعماقها كانت تعلم أنه برغم عجرفته كانت هي التي تملك المبادرة. فضعفها كان في الواقع هو سبب قوتها.

«متى تنتهي تلك الحفلات عادة ياغافن ؟»

«تستمر طوال الليل أحياناً. ولكن تستطعين والانسحاب ساعة

تشائين.»

كان صوته رقيقاً يفتقر الى الحماس لكنها لاحظت أنّ يديه كانتا تضغطان على عجلة القيادة قليلاً. انها تفضل أن تخلد الى النوم بعد منتصف الليل مباشرة. لكنها لن تطلب منه أن يعيدها الى المنزل تراءى لها وجهه وهي تطلب منه أن يعودا والحفلة في أوجها.

كانا يتجهان الآن صوب بورت باتريك لكن كل شيء بدا مختلفاً الآن في ظلمة الليل وكأنه تبدل بفعل سحر السماء السوداء المخملية، ليبدو كأرض العجائب المرصعة بالنجوم. تنهدت بعمق وقد أحستّ أنها وقعت بالفعل في هوى تلك الجزيرة وسحرها الغامض. ياليت كولن هو الجالس جوارها لكانت شعرت معه بالراحة، تنعم بدفء اعجابه الصريح بدلاً من شعورها الحالي بالذنب لأنها تضيّع وقت هذا الرجل المضطر لمصاحبتها وتذكرت أن كولن وميغان سيكونان في الحفل، مما جعلها ترتاح.

خفّت حدّة التوتر قليلاً عندما نجحت جين في الاسترخاء. ساعدتها الموسيقى على ذلك لأنها وفرّت لها شيئاً يمكن أن تركّز عليه انتباهها. كانت كلّ حواسها مستيقظة مركزة على ذلك الرجل الجالس قربها يمس ذراعها مساً خفيفاً كلما حرّك جهاز السرعة. كانت قسماته كالصقر وهو يراقب الطريق أمامه، الأمر الذي شجعها على المخاطرة بالقاء نظرة خاطفة عليه. مرت الأشجار والمنازل من جوارها في شكل ضباب رمادي اللون حين اقتربا من المدينة انعطف الى اليسار في طريق ضيق مرتفع. كان القمر ساطعاً وقد أغرق الجزيرة بنوره الخافت وتذكرت ليلتها الأولى في سارامنكا عندما قامت بتلك النزهة

المشؤومة.

كانا وحدهما الآن تماماً وسط تلك الظلمة وقد تركا المدينة وراءهما. كان الطريق ضيقاً كشريط أبيض منبسط أمامهما. عن بعد كان ضوء القمر يلمع فوق مياه المحيط الداكنة. صاحت في اندفاع وقد نسيت تماماً أنها في صحبة غافن :

«ياللروعة...»

«نعم انها حقاً رائعة.»

خفف من سرعة السيارة ثم توقف تماماً: لماذا فعل ذلك؟

جاءت ضحكته المقتضبة لتؤكد لها أنه قرأ أفكارها وقال:

«اعتقدت انك قد تحبين أن تنزلي من السيارة لتلقي نظرة أكثر وضوحاً.»

«أشكرك.»

فتحت جين باب السيارة وهبطت وكأنها تخشى إثارة غضبه ان هي رفضت. وحاولت أن تقاوم ذلك الاحساس بالخوف الذي داهمها فجأة.

انه لا ينوي الهجوم عليها فلماذا هذا الخوف؟

راحت تحملق بعيداً في ذلك المنظر الشامل الممتد أمامها. إنه يقف قربها الآن ابتعدت قليلاً. وبلا أي تفسير تنازعتها رغبة قوية في العودة الى السيارة.

«لم أكن أنوي أن أمسكِ.»

قالها بنبرة خشنة وكأنه قرأ أفكارها.

أحسّت جين وكأن شيئاً ينهار في داخلها فقالت وهي تستشيط

غضباً:
«لم أكن أتصوّر أنك ستفعل.»
«كلا ؟ نفرت وكأنك ظننت أني سأحاول الاعتداء عليك.»
«هذا ما صوّره لك خيالك.»

استدارت عائدة الى السيارة تاركة إياه في حالة غضب، لحق بها دون أن ينبس بكلمة واحدة وانطلقا بسرعة، دون أن يتبادلا أية كلمة.

لاح المنزل من بعيد يشتعل ضياءاً، تبخرت قوّة التحدي التي كانت لدى جين.. استقامت في مقعدها. حملقت في السيارات الكثيرة المصطفّة أمام المنزل. ثم انفتح باب البيت لتجد على عتبته فتاة طويلة في هالة من الضوء الذهبي تصيح قائلة:
«عزيزي غافن . الآن نستطيع أن نبدأ الحفلة.»

أخذت جين ترقبها وقد وقفت مهملة في الخفية، بينما ساره تشبّ على قدميها لتعانق غافن مرحبة، ردّ عليها قائلاً:
«مرحبا يا ساره ، تبدين جميلة للغاية.»

أطلقت ساره ضحكة رنانةثم مدّت يدها ناحية جين وكأنها قد تذكرت وجود شخص آخر معها:
«أهلاً، من المؤكد أنك جين. لطيف جداً منك أن تحضري.»

نظرت اليها جين . انها فتاة جميلة. كل شيء فيها كان يوحي بأنها تعرف كيف تعتني بنفسها بدءاً بشعرها الحريري الأشقر حتى أصابع قدميها التي طلّت من تحت ثوب أبيض بسيط يخطف البصر، ثناياه الشفافة تطفو حولها مطوقة قدّها النحيل. كانت عيناها واسعتين داكنتين ترقبان جين في عملية تقييمٍ صريحة ماهرة.

«كم تبدين رائعة. تفضلي. أنا واثقة من أنك في حاجة الى قدر من الانتعاش بعد رحلة الطريق. ابحث عن مكان توقف فيه سيارتك ياحبيبي وسأعتني أنا بجين.»

قالت له ياحبيبي. تساءلت جين عما إذا كانا كذلك بالفعل . إنها لن تدهش لذلك، فقد حياها بحرارة. لم تكن تتوقع أن تجدها فيه.

اصطحبت ساره جين الى غرفة نوم ذات أثاث فخم وأشارت الى منضدة الزينة قائلة:
«تفضلي ياجين ، اخدمي نفسك بنفسك.»

ابتسمت سارة فجأة ثم رمقتها بنظرة أخيرة وخرجت.

تهاوت جين على أقرب مقعد وهي ترتعش . أغلقت عينيها لحظة وأحسّت بأنها تريد أن تهرب وتختبىء. كان مسلك سارة وكل مايحيط بها محسوباً بدرجة جعلت جين تشعر أنها صغيرة تافهة. أحسّت وكأنها تشترك في مسابقة جمال. تفحصتها عينا سارة الجميلتان القاسيتان وكأنهما عينا حكم في مسابقة، يقيّم ويضع الدرجات ثم يصرف النظر عنها. كانت جين ساذجة جداً عبثت انها لم تدرك مهارة سارة في اخفاء مشاعرها الحقيقية وكيف أنها استشفت بذكاء، حياء جين الفطري الدفين وعرفت كيف تستغله لمصلحتها.

بيدين مرتعشتين وضعت جين أحمر شفاه ، تنفست تنفساً عميقاً ثم اتجهت نحو الباب واستمعت الى أصوات الثرثرة المنبعثة من الطابق الاسفل. قاومت شعورها بالخوف ثم نزلت درجات السلم في سكون وهي متشبثة بالدرابزين الحديدي آملة في أن تنسل الى الداخل

وتبحث عن ميغان قبل أن يراها أحد.

جاء صوت سارة واضحاً عالياً:

«انظروا جميعا ، ها هي جين .»

كانت سارة في انتظارها. وبمجرد أن اقتربت من الغرفة ، ساد صمت مفاجيء، وتوقف الحديث والضحك تماماً عندما أخذ الجميع يراقبونها وهي تسير مع سارة. كانت جين ترتجف لكنها في تلك اللحظة رأت بين الحاضرين وجها متهكماً تعلوه بسمة ساخرة. كان ذلك الوجه هو وجه غافن. تنفسّت في عمق. ثم أحستّ باصرار ينمو في داخلها لمواجهة الموقف ابتسمت فجأة بينما كانت سارة تقول:

«أعرفكم بجين، ابنة جون أوغستاس ريتشي.»

وراحت جين تصافح رجالاً ونساء يرتدون ثياباً أنيقة ، وجميعهم أيضاً يقيّمونها من وراء ابتساماتهم وتحيّاتهم التقليدية التي انهالت عليها. اجتازت كل هذا بلا تردد بعد أن استعادت ثقتها بنفسها بسبب بسمة ساخرة على وجه رجل ونجحت في ألاّ تعطي أصدقاءه ذرة من الاهتمام.

بدأ الحديث يتصاعد من جديد تدريجياً وكان في وسع جين الآن أن تلتقط أنفاسها بحرية واسترخاء اذ أحستّ بالضغط ينحسر من حولها بعد أن تحوّل اهتمام الحشد الى قادمين جدد. أما غافن فقد اختفى وسط الحشد .

في تلك اللحظة وجدت جين نفسها قرب والدة سارة التي قالت لها:

«أنا واثقة من أنك في حاجة الى هذا المرطب ياجين. إشربي

ياعزيزتي.»

«شكراً.»

«هل جئت أنت و غافن وحدكما؟ أنا أسفة لأن والدك لم يحضر. لكن من المؤكد أن غافن ظريف جداً أليس كذلك؟ أنه يشكل مع ساره ثنائياً رائعاً. أليس كذلك؟»

«نعم بالتأكيد. واظن انهما سيعلنان خطوبتهما قريباً.»

«لاتقولي شيئاً من هذا. فالأمر مازال سراً.»

«لا لن أقول شيئاً على الاطلاق.»

قالت جين ذلك ثم رشفت من مشروب ذهبي تناثرت فقاعاته من كأسها ليأخذ طريقه الى جوفها في رذاذ مثلّج مسموع.

استأذنت السيدة سمايث لتجد جين نفسها تقف وحيدة تماماً وسط بحر من الوجوه الضاحكة، منعزلة وكأنها تقف في جزيرة مهجورة. ودون تفكير رفعت كأسها وابتلعت كل مافيها دفعة واحدة.

ثم سمعت صوتاً يقول :

«انك رائعة فعلاً.»

التفتت الى الوراء لتجد وجهاً بشوشاً لرجل متوسط العمر. كان أصلع الرأس ذا أنف مدبب وعينين ساحرتين أهداب داكنة.

«أنت الدكتور ماكدونالد.»

«كيف عرف ذلك ياجين؟»

«قالت لي ميغان أنك ستكون في الحفلة كما أنه لم يكن ممكنا أن تفوتني تلك اللهجة المحببة. ولكن كيف عرفتني أنت؟»

«أنت أيضا تطابقين ماسمعته من أوصافك، وقد رأيت سارة وهي

تخصك بتلك المعاملة ولبوني أيضا كنت مندساً وراء تلك الزهرية عندما كانت تسرد عليك تلك القصة المعادة عن سارة وغافن.»

«ماذا تعني بتلك المعاملة؟»

رفع حاجبيه مندهشاً:

«ألم تفهمي ؟ قولي لي ماذا كان شعورك وهي تقودك صائحة أمام هذا الحشد بعد أن ادركت خجلك. دعينا نجلس بعيداً في ركن هادىء. أريد أن أحدثك عن أبيك.»

وجدت جين نفسها تجلس في جوار الرجل الودود، وهكذا أصبحت الحفلة أكثر بهجة. أزدحمت الغرفة ومر الكرسون بالمشروبات التي كانت تختفي قبل أن يتقدموا بضع خطوات. ظهر غافن فجأة وألقى نظرة عليهما ثم اختفى وقد ابتلعه الزحام. جلس ماك وجين يتحدثان غافلين عن كل هذا الى أن ظهرت ميغان ، حيتهما بسرور وجلست قربهما قائلة:

«كنت أود أن أكون هنا ساعة وصولك ياجين.أين جون؟»

«لم يستطع المجيء .»

«اذن جئت أنت و غافن وحدكما؟»

«نعم .»

نظرت ميغان الى جين وبدت وكأنها كانت على وشك أن تقول شيئاً ثم عدلت.

تحدث ماك عن طريقة استقبال سارة لجين فقالت ميغان لجين:

«لهذا كنت أودّ أن أكون هنا وقت وصولك لكنني واثقة أنك كنت رائعة

كما ذكر لي ماك.»

وصل الى أسماعهم صوت موسيقى منبعث من مكان آخر من المنزل، ونغمات متنافرة واضحة في محاولة لضبط أوتار الآلات الموسيقية. قالت ميغان:

«سيبدأ الرقص الآن، وبعد ذلك سيفتتحون مائدة الطعام.»

تحولت الحفلة الى ميدان صخبة، كتلة دائرية من الألوان كالزجاج البراق، كتلة من الضجيج والمتعة، بعد أن احتست جين كأسها الثانية وتولى كولن الذي وصل متأخراً رعايتها. اندفعا نحو فناء خلفي واسع حيث كانت الفرقة الموسيقية تعزف. كان الفناء ممتداً نحو مروج خضراء حيث كان المدعوون يرقصون على النجيل المضاء بالأنوار وكذلك على أرضية الفناء الحجرية وقد تناثرت فيها أصص النخيل وتوسطتها نافورة صغيرة تتناثر منها المياه في شكل جميل.

قال كولن لجين وهو يراقصها:

«انك تثيرين ضجة ياجين.»

«دعك من هذه الدعابات.»

احمرّت جين خجلاً وتعثرت خطواتها وقد ساءتها مداعبته الساخرة. أمسكها بقوة ليحول دون تعثرها من جديد. وهمس قائلا:

«أنا لا أمزح ياعزيزتي. صدقيني. تبدين رائعة الجمال.»

كانت الموسيقى صاخبة تشيع حيوية. تعاقبت بعد ذلك عدة رقصات رأت في احداها غافن وسارة يرقصان معاً. كانا يحتضنان بعضهما البعض بقوة وكأنهما لايشعران بوجود أحد.

فجأة أحستْ جين بالدوار وقالت لكولن :

«أيمكننا أن نتوقف عن الرقص قليلاً. لقد تعبت

جذبها الى الخارج قائلاً:

«أنت في حاجة الى هواء نقي ياعزيزتي.»

في الهواء الطلق أحسّت جين برعشة البرد. أحاطها بذراعه قائلاً بصوت عذب:

«تحسنت حالتك اليس كذلك؟»

أدارت نحوه وجهاً ضاحكاً وهي تقول:

«نعم أعتقد ذلك.»

«سأمارس أساليبي الشريرة معك.»

ابتعدت وهي تقول:

«شكراً على تحذيرك إياي، والآن يجب ان نعود الى الحفلة.»

عادت الى الرقص بكل حماس وقد قررت ان تندمج في الجو.

لم يكن في وسعها أن تتصوّر كيف كانت تبدو فاتنة، هيفاء نحيلة في ثوبها الجميل، شعرها لامع بشرتها تشع بالصحة وهي تضحك وترقص حتى انقضى المساء.

وفي احدى الرقصات كانت مع جوني ميليا وهو شاب جذّاب عرف أنه زير نساء فرأت غافن يقف وحيداً، يدخن سيكاراً كانت نظرته اليها قاسية قاتمة. وتحدياً لغافن ابتسمت لجوني ، وأحسّت بقدر من الرضى عندما رأت غافن يستدير في سرعة ويسير مبتعداً.

ساعدها الطعام الذي تناولته على استعادة قدر من اتزانها. دخلت هي و كولن وميغان وماك وانضموا الى المتزاحمين حول العشاء المعد بأناقة. وبينا كانوا يسيرون ممسكين بأطباقهم ينتقون شرائح الدجاج

واللحم وعشرات الأصناف من الأطعمة الغريبة والمبهجة سمعت صوتاً يقول:

«هل تستمتعون بوقتكم؟»

استدارت لترى غافن .

حيّته ميغان قائلة:

«مرحباً أيها الغريب، لم نرك كثيراً اليوم.»

إبتسم ابتسامة مقتضبة وقال:

«كنت أقوم بجولة بين المدعوين.»

استدار نحو جين التي كانت تقف مع كولن وقال لها:

«هل كانت الحفلة كما تتوقعين؟»

«نعم، وهل هي كذلك بالنسبة اليك؟»

«بالقدر الذي توفره أية حفلة.»

لاحظت أن صوته كان فاتراً. ولم تعرف السبب الذي دفعها الى ان ترد عليه بفتور مماثل بقولها:

«عندما تشعر بانك لم تعد راغباً في السهر ارجوك ان تبلغني.»

أدارت ظهرها له ثم التقطت قطعة كبيرة من الدجاج.

«سأفعل. هل تأذنون لي؟»

وهنا قال كولن

«لماذا كل هذا؟»

استدارت ناحيته وعيناها تلمعان في تحد:

«هل كنت فظة؟»

«الناس لايتحدثون هكذا مع غافن.»

«هذا يدعو أكثر للأسف.»

ردت جين بهذه العبارة ثم أحست بالندم وسمعت ضحكة ميغان المقتضبة فاستدارت:

«أحسنت صنعاً ياجين.»

تنهدت جين في عمق. هناك شخص واحد على الأقل في جانبها. لقد بدأت بالفعل تندم على تهورها في ردها على غافن. فهي لم تكن يوماً فظّة مع أحد لكن غافن لم يكن نمطاً عاديا من البشر.

أحسّ جين بقدر من التحسن عقب العشاء. أقبلت سارة نحوهم مبتسمة وهي تطرف بأهدابها في حياء، ناظرة الى الرجلين وقالت:

«أرجو ان تكونوا جميعاً مستمتعين بوقتكم.»

ثم مدّت يدها وأراحتها على ذراع جين قائلة:

«سررت بمجيئك ياجين. أرجو أن تأتي الينا مراراً. ولعلنا نقضي يوماً معاً في بورت باتريك.»

انسلت مبتعدة فتنهد ماك:

«ياللعجب، أنت تحظين بالحفاوة والتكريم. إنّ سارة لديها مبرراتها لذلك فهي تتودّد إليك حتى تضمن ألاّ تحاولي سرقة صديقها.»

نظرت جين وميغان كل الى الأخرى وانفجرتا في الضحك دون أن تقدما لماك تبريراً لمسلكهما هذا.

بدأت جين في وقت متأخر من الحفلة تشعر بالاجهاد، بل ربما المرض أيضا. كانت تجلس هي وميغان وحدهما في ركن هادىء نسبيا، وتلفّتت جين حولها في يأس. كانت تحسّ بحبات العرق تنتشر فوق جبينها. همست قائلة:

«سأذهب الى الحمام.»

سألتها ميغان في قلق:

«هل أنت في خير؟»

«نعم لكني أحسّ بقدر من الاجهاد، فأنا لست معتادة على السهر، لن أغيب..»

«سآتي معك.»

«كلا لاتزعجي نفسك.»

لم يلاحظ أحد انسلالها الى الطابق الاعلى. وفي الحمام، غسلت وجهها ويديها، جلست ساكنة للحظات، ثم سارت عبر رواق غطته سجاجيد مترفة أخذت تتأرجح بشكل مخيف، كظهر مركب في عاصفة. مرّت جين بغرفة نوم مفتوحة، لترى سريراً نظيفاً و رضخت لاغراء قوي، تدخلت بثبات، خلعت صندلها، ثم رقدت وهي تتنهد في راحة.

افاقت على يد تهزّها، وصوت آت من بعيد.

«جين هل أنت في خير؟»

فتحت عينيها لترى خيالاً مرتعشاً لرجل وقد وقع عليه الضوء الآتي من الباب المفتوح. أحستّ بالذعر، حاولت جاهدة أن تجلس لكنها شعرت بدوار، ثم استعادت اتزانها بالقدر الكافي فرأت كولن يقف في جوارها.

«كولن يبدو أنني استغرقت في النوم كم من الوقت مضى عليّ وأنا هنا؟»

ضحك وهو يجلس قربها على السرير قائلاً:

«حوالي ربع ساعة فقط كانت أمي قادمة تبحث عنك لكني تطوّعت

للقيام بالمهمة. أتشعرين بأنك مريضة؟»

تململت جين محاولة أن تجد وضعاً أكثر راحة فتطوّع كولن لمساعدتها.

«كلا. كنت متعبة فقط ـ كانت رأسي تدور. أنا آسفة.»

«لاتقلقي. اسمعي، هل تودّين أن أصحبك الى المنزل؟ قاربت الساعة الثانية.»

اتسعت عينا جين وهي تقول:

«هل يمكنك أن تفعل ذلك؟ من المفروض أن أذهب مع غافن، لكني واثقة أنه يوّد أن يمكث حتى النهاية وأنا لست معتادة على الحفلات الصاخبة.»

«أسمعي ، سأنزل لابلغ غافن بأنك ستأتين معي.»

توقف فجأة عن الكلام عندما سقط ظل شبح على أرض الغرفة المظلمة أعقبه دخول غافن نفسه. ساد الصمت هنيهة بينما كان الأخير ينظر الى جين وكولن وقد خلا وجهه من أي تعبير. ثم قال

«عفواً ماكنت اريد الدخول، لكن خيل إلي أنني سمعت شخصاً يناديني.»

أحستّ جين بوجهها يشتعل وسط الظلمة التي رحمتها من عينيه. لم تنجح نبرته اللامبالية في اخفاء الاحتقار الحاد الذي ظهر في كلماته.

أبعد كولن يده عن جين قائلاً:

«كنت على وشك أن أنزل لأراك ياغافن. قلت لجين أنني سأصحبها الى المنزل.»

«هل تودّين أن تذهبي الآن ياجين؟»

«نعم.»

«اذن سأصحبك.»

«لكن»

بادرته جين معترضة حتى لاتضطرّه الى ترك الحفلة قبل نهايتها.

غير أن كولن أسرع الى القول:

«حسنا اتفقنا.»

كانت تعرف برغم الظلمة الجزئية التي كانت تحيط وجه غافن، أن عينيه كانتا مركزتين عليها وهو يقول:

«انا أحضرتك وأنا وعدت والدك بأن اعيدك الى المنزل.»

كانت تنتظر أن يعالج كولن الأمر بطريقته، أن يعيد كلّ شيء الى وضعه الطبيعي ولكنه لم يفعل بل هزّ كتفيه ونظر الى جين وكأنه يوّد أن يقول لافائدة من الجدل ثم قال:

«اتفقنا ياغافن، فأنت الرئيس.»

ساد صمت مفاجيء ثم استدار غافن خارجاً.

سمعا وقع قدميه وهو يبتعد فأطلق كولن زفرة ارتياح عميقة:

«انه طيب ومجنون في آن.»

جلست جين وتشبثت به كمن يتشبث بطوق نجاة وقالت:

«لماذا ـ لم تصر على اصطحابي؟»

«لامجال للنقاش مع غافن. صدقيني، فأنا أعرفه.»

التقطت جين حقيبتها وهبطت السلم مع كولن ثم سارت نحو الباب وهي تشعر وكأنها ذاهبة الى الجحيم.

٥ ـ المواجهة

لوّحت جين لكولن ، ثم استقلّت السيارة. أحسّت وكأن الصلة الاخيرة بينها وبين المدنية انقطعت لحظة سمعت صوت انغلاق الباب الخارجي للمنزل. لم يكن في وسعها أن تعبّر عن مدى تعاستها عندما لاحظت غضبه البارد مثل الصقيع. جلست متصلبة في مقعدها لا تجسر على الاسترخاء خشية أن تستغرق في النوم. كان تصوّرها بأنها ستقوم برحلة تستغرق ساعة كاملة مع ذلك الرجل المتجهم الوجه يخيفها. بدأ يقود سيارته بسرعة مبتعداً عن المنزل الذي أخذت جين ترقبه وهو يتقهقر كلّما انطلقا بسرعة نحو الظلام. سألها وهو يشعل سيكارة:

«هل يضايقك أن أدخن؟»

«كلا.»

وردّت وهي تفكر كيف أنها لا تجرؤ على الاعتراض. لا أحد يستطيع مناقشة غافن، ولا حتى كولن الذي نفذّ ما أمره به غافن في غرفة النوم. كم كانت تتمنّى لو أنها لم تذهب الى هناك،

كانت تتمنّى أيضاً لو أنها لم تتحدث بمثل تلك الحدّة في غرفة الطعام.

ملأت رائحة التبغ المعطرة السيارة، فنظرت جين من النافذة وهي تتمنّى ألاّ يدفعها ذلك الى الشعور بالغثيان. كانت رأسها تؤلمها ألماً أخذ شكل النبض البطيء الثابت الموجع، وكانت تشعر وكأن عينيها مليئتان بالرمال. لم تستطع أن تتحمل ذلك الصمت الثقيل أكثر من ذلك، فانفجرت قائلة:

«أسفة لأنني اضطررتك الى ترك الحفلة.»

«أحقاً أنت آسفة؟»

توهّج السيكار وهجاً أحمر حين أدار رأسه لينظر اليها.

«نعم آسفة. ولهذا السبب كنت أودّ أن اعود مع كولن»

«هل كنت ستدعينه يصحبك الى المنزل؟»

«نعم، فانا أعلم أنك كنت تودّ أن تبقى حتى نهاية الحفلة.»

«قلت لك أن تبلغيني عندما تودّين الرحيل. فأنا عندما أتعهّد بشيء احرص على تنفيذه. قلت لوالدك أنني سأعيدك سالمة الى المنزل، وسأفعل ذلك دون أيّ اعتبار للوقت.»

«كان أبي سيتفهم الموقف.»

«ليس هذا هو محور الجدل، أليس كذلك؟»

أحسّت لهجة احتقار حادّة في نبرته. أصرّت على أسنانها بمرارة متسائلة في تهكم.»

«أظنه شيئاً رائعاً أن يبلغ المرء حدّ الكمال، أن يفعل دائماً الشيء الصواب ؟»

نفض سيكاره بعناية وضحك قائلاً:

«لا تجعلينا ننحط الى مستوى الاهانات الشخصية.»

لم تكن في ضحكته أيّ نوع من الدعابة. شبكت جين يديها بقوّة وقد ملأها غضب جارف. نظر اليها، فرأى قبضتها المتوترة كما لاحظ تنفسها السريع واستطرد:

«لو كنت مكانك لحاولت أن أسترخي. أمامنا رحلة طويلة.»

«كيف استرخي وأنا معك؟ انك تظهر تماماً كم أنت متضايق من مهمتك أنا أشعر بذلك.»

وضعت يدها على جبهتها المتألمة، ضاغطة بقوة.

ضغط بقدمه على الفرامل فوقفت السيارة بسلاسة. استدار قائلاً:

«حسناً، أفصحي عما في صدرك. ماذا تعنين بالضبط؟»

أشاحت جين بوجهها. لم يكن هناك ضوء أو صوت. كانا وحدهما في صحراء شاسعة من الظلام، والآن أدركت لماذا استسلم كولن بتلك السرعة. فالقوة التي يتمتع بها هذا الرجل خارقة. كان ينتظرها تتكلم وكأنه نمر متأهب للانقضاض.

لم يكن لديها أسلحة تحاربه بها، ولأنها كانت تعرف أنه ليس في وسعها أن تفوز في حرب كهذه فقد تشجعت وقالت:

«حسناً، سأقول لك. لقد أفصحت تماماً عن مدى كراهيتك لي. أنا لا أعرف لماذا ؟، لم أفعل لك شيئاً. ويجب أن تتعلّم أن تحكم على الناس كما هم في الواقع لا كما تتخيّلهم أنت.»

اشتدّ صوتها وأصبح أقل تردداً. فهي تعرف الآن، أنه ليس لديها ما تخسره. أن أسوأ ما يستطيع أن يفعله هو أن يطلب اليها مغادرة

السيارة لتعود الى البيت سيراً على القدمين. واستدارت بالفعل ومست مقبض الباب، وكأنها تدرس تلك الفكرة. رأى غانن حركتها فقال بحدّة:

«أين أنت ذاهبة؟»

«لست ذاهبة الى أيّ مكان، ومع ذلك فقد كنت أفكر أنه سيكون من الأفضل أن أعود الى المنزل سيراً على القدمين.»

«أترين ذلك ؟ ستكتشفين خطأك بعد بضع خطوات. إلاّ اذا كنت تحبين أن تخترق الخفافيش شعرك.»

«أنا لا أخاف الخفافيش إنها مجرد فئران طائرة ـ وهي تخشانا أكثر مما نخشاها.»

«أنت تدهشينني. فمعظم النساء يرتعبن من الخفافيش.»

«أنا لست مثل معظم النساء. ومع ذلك فانا لا أعرف لماذا تعتقد أن الشجاعة تنقصنا بالمقارنة مع الرجال. فالنساء لم يعدن مخلوقات ضعيفة. صدّق أو لا تصدّق أن لديهن عقولاً أيضاً.»

«حسناً، لقد شرحت وجهة نظرك جيداً.»

مدّ يده نحو ولاعة السكائر مرة أخرى، فقالت جين:

«هل أنت في حاجة الى السيكار ليمدك بالشجاعة؟»

أحسّت جين بأن هناك شيئاً ما يستحثها على الاسترسال، قوّة لم تكن تفهمها، ولكنّها كانت تودّ بشكل ما أن تخترق ذلك السطح الخارجي، أن تثقب مناعته الحصينة هذه لترى ما وراءها. رأت من خلال الضوء القاتم المنبعث من لوحة أجهزة القياس عضلات وجنتيه تنقبض وسمعت تردد أنفاسه فعرفت، أنها سجلت هدفاً ضده مهما كان

حجمه تافهاً.

«كلا، لست في حاجة الى السيكار، لكنه يساعد في معالجة التصرفات الصبيانية!»

«إن سلوكي ليس صبيانياً.»

«أنت تدهشينني. أعطيتني انطباعاً قوياً بذلك حتى الآن. والآن هل انتهيت وهل يمكننا أن نواصل رحلتنا؟»

قالت وهي تلهث:

«أنا لا أعرف لماذا توقفت أصلاً. أنت انسان كريه.»

«لا تتمادي في وقاحتك أكثر من هذا يا آنسة ريتشي، فقد نفذ صبري.»

أشعل سيكاراً آخر ببطء كانت الرائحة المعطرة للسيكار الذي أشعله أخيراً بمثابة الضربة الأخيرة. فقد دفعت جين الباب واندفعت خارجة تحتمي بالنخيل وهي تشعر بالاعياء.

كانت ترتجف وتهاوت قدماها. سمعت بشكل خافت مبهم صوت ارتطام باب سيارة. فكّرت أنه على وشك أن يقود سيارته مبتعداً. كانت تشعر بقدر هائل من الاعياء حال دون اهتمامها بما يحدث، وتوقعت ان تسمع صوت المحرك يملأ المكان لكنها بدلاً من ذلك سمعت وقع أقدام مسرعة ثم جاء صوته قائلاً:

«ماذا هناك هل انت مريضة؟»

تعثّرت ثم استدارت. كانت تحسّ بقدميها تلتويان بينما كانت الأرض تتأرجح وترتعش وفي اللحظة التالية وكان غافن يحملها بين ذراعيه متجهاً الى السيارة.

«أنزلني، دعني، أرجوك.»

دفع بها الى مقعدها وقال في حزم:

«اجلسي مكانك.»

في اللحظة التالية كان الى جوارها وقد غمرها النور الداخلي للسيارة. أعطاها منديلاً وقال:

«امسكي هذا.»

مدّ يده الى الدرج الأمامي للسيارة وأخرج زجاجة. فتحها ونثر بعضاً منها فوق المنديل فامتلأت السيارة برائحة منعشة نفاذة، ثم قال:

«والآن، امسحي وجهك فهو سيفيدك كثيراً.»

امتثلت جين ومسحت وجهها بيدين مرتعشتين فصدمتها البرودة الحادة لتعيدها الى حالتها الطبيعية.

«شكراً لك.»

تبدلت لهجة غافن، فصار موضوعياً، واختفت النغمة الغاضبة من نبرته. سألها وهو يرقبها:

«لماذا لم تقولي لي إنك تشعرين بالغثيان.»

نظرت الى وجهه وقد مال نحوها وقالت:

«كنت أظن أنك تعلم، فذلك كان سبب صعودي الى الطابق الأعلى للاستلقاء.»

«ومن أين لي أن أعرف؟ لقد ظننت أنك صعدت لكي...»

وسكت متردداً، وأحسّت جين بوجهها يلتهب. فتساءلت:

«ماذا كنت تظن؟»

«ظننت أنك ذهبت لموافاة كولن.»

وأضاف عندما أطلقت شهقة لا إرادية:

«إني أعتذر. أدركت الآن مدى خطأي، ولكن لماذا لم تقولي لي أنت أو كولن.»

أشاحت جين برأسها وقد أفلتت منها شهقة باكية. وأحسّت بضياع وحرج وأخيراً استطاعت أن تنطق بصوت مرتعش:

«هذا ليس مهماً. أرجوك دعنا نواصل رحلتنا الآن. فأنا أشعر بتحسن.»

«لن نستأنف الرحلة وأنت تبكين.»

«أنا لا أبكي.»

«بحق السماء حاولي أن تتوقفي عن البكاء. لقد اعتذرت لك.»

مسحت وجهها بالمنديل وقالت بنبرة تكاد تكون طبيعية:

«أرجوك أود لو نذهب الآن فأنا متعبة جداً.»

في ذلك الضوء الخافت خيّل اليها وكأنها رأت شيئاً ما في وجهه أحال جسمها الى شعلة ملتهبة. وكأنها واقعة تحت تأثير مغناطيسي، نظرت الى عينيه، كانتا داكنتين فيهما ظلال أحدثها ذلك الضوء الذي بدا كبحيرة صغيرة. سمعت تردد أنفاسه، ورأت صدره يعلو ويهبط، وذلك التجويف الداكن الظلال في أسفل عنقه، بينما كان وجهه الماثل داكناً مكتمل الرجولة. كانت لدى جين رغبة جارفة في أن تمدّ يدها وتمسّ شفتيه بأناملها، بل إنها أحسّت بالفعل وخزاً خفيفاً وكأن الفكرة تحوّلت الى واقع. ضغطت على يديها محاولة استعادة حالتها الطبيعية.

قال لها في رقة:

«أرجعي رأسك الى الخلف وحاولي أن تستريحي. لن أسير مسرعاً.

امتثلت لما قاله. وأحسّت بهدوء غريب. تحركت السيارة في بطء، تزيد من

سرعتها كل لحظة وهو يقودها بعناية في طريق العودة.

أغلقت جين عينيها محاولة أن تخلد إلى النوم، على الأقل لن يكون عليها أن تتكلم معه. لكنها ستحاول التفكير برغم أنّ الافكار تتصارع في رأسها مثيرة للقلق، فقد ظلّ وجهه الساخر يتراءى لها. وأدركت بأنه لم يحبها عندما كانت تتحد ث عن استيائه منها، بل كان يحرص دائماً على تغيير الموضوع. أوقف غافن سيارته أمام البوابة الخارجية لمنزل والدها وقال:

«سنقطع الممر سيراً على الاقدام. أين مفتاحك؟»

فتحت جين حقيبتها وبدأت تبحث عن المفتاح الذي دسّه إلن في يدها قبل أن تغادر المنزل. تقطبت جبينها وبدأت تتحسسّ بدقة أكثر في كل ركن وبحركة يائسة سريعة أفرغت حقيبتها، وبدأت تقلب في محتوياتها فلم تجد أي أثر للمفتاح.

«أتسمحين لي؟»

قال لها ذلك وهو يأخذ الحقيبة الفارغة ويدّس يده فيها متحسساً البطانة ثم قال:

«لا أثر للمفتاح. أتظنين أنه سقط من الحقيبة؟»

«نعم عندما صعدت الى الطابق الأعلى للاستلقاء، سقطت مني الحقيبة، نسيت هذا تماماً.»

«هل فتحت الحقيبة اثناء سقوطها؟»

«لا أدري. كولن هو الذي التقطها.»

نزل غافن من السيارة قائلاً:

«تعالي، سنحاول أن ندخل في هدوء.»

ركضت خلفه وهو يسير بخطوات واسعة في الممر المتعرّج الموصل الى المنزل، وهي تتمنّى أن يجدا نافذة مفتوحة في الطابق الأسفل. لن تنسى هذه الأمسية الثقيلة كالكابوس. حدّثت نفسها بذلك في تعاسة وهي تتعثر في صندلها ذي الكعب العالي محاولة اللحاق بغافن.

المنزل يلفه الظلام وسكانه نائمون. أشار لها غافن بأن تلتزم الصمت. حاول فتح الباب الخارجي أولاً ثم بدأ يجرّب النوافذ واحدة تلو الأخرى. وعندما اختفى في الفناء الخلفي للمنزل انتظرت جين وهي لا تجسر حتى على الحركة. عاد بعد أقلّ من دقيقة. أنبأها وجهه بالنتيجة ولم تكن في حاجة لأن تسأل.

دنا منها وقال:

«ليس أمامنا الآن إلاّ أن نحاول ايقاظ إلن، ولكننا على وجه التأكيد سنوقظ والدك أيضاً، وهذا مالا أودّ أن أفعله. بقي أمامنا اختيار واحد.»

«ما هو ؟»

«أن تنامي في منزلي.»

وعندما نطق بهذه الكلمات بدأ يسير وقد تأبط ذراعها مبتعداً عن المنزل، يجذبها بعيداً، حتى يستطيعاً أن يتحدّثا بحرية أكثر. تصلّبت ثم توقفت عن السير، منتزعة يدها من يده وهي تصيح:

«كلا... كلا.»

«ماذا تقترحين؟»

«ألا يمكننا أن نقذف بعض الحصى على نافذة إلن ؟»

«أين غرفة إلن ؟»

«لا أعرف. أظنها في الناحية الخلفية من البيت.»

«اذا كنت تظنّين أنني سأقف هنا لأقذف كل نافذة بالحجارة، فأنت مخطئة... وحتى في هذه الحالة ليس هناك ما يضمن أنها ستستيقظ من نومها العميق. لا تنسي أنها تذهب الى فراشها في ساعة متأخرة وتستيقظ مبكرة. تعالي.»

تأبطها مرة ثانية، ولكن بقدر أقل من الرقة هذه المرة حتى وصلا الى السيارة.

استدارت جين قائلة:

«الكاراج ليس مغلقاً ويمكنني النوم في السيارة.»

«لا تكوني حمقاء. اصعدي الى السيارة.»

قال كلمته الأخيرة بخشونة وهو يفتح لها باب السيارة وقد نفذ صبره. بعد دقائق كانا أمام منزله حيث كان هناك ضوء متوهج في البهو يغمر الممر. ارتقى غافن السلم راكضاً ووضع مفتاحه في قفل الباب مستديراً تجاه جين التي كانت لا تزال في السيارة.

«تعالي.»

امتثلت جين وهي تحسّ بالحيرة. ثم تجمّدت لدى رؤية ذلك الكلب الضخم، يهزذيله القصير بعنف ويقفز عالياً على غافن الذي عرفت الابتسامة طريقها الى وجهه الآن.

استدار قائلاً:

«لن يمسّك بأذى فلا تخافي.»

«أنا لا أخاف الكلاب إلاّ إذا وثبوا عليّ في الظلام.»

«من الأفضل أن تحييّه.»

مدّت جين يدها ليتشممها فجلس أمامها مصدراً أنيناً خافتاً

وهي تربت على رأسه مبتسمة لعينيه الرقيقتين.

رفعت جين رأسها لتجد غانن واقفاً يرقبها وقد علا وجهه تعبير غريب فأحسّت بالارتباك، وقد بدأ قلبها يدق بشدّة. فهي لم تر وجهه على تلك الصورة قبل اليوم.

استدار غانن فجأة قائلاً:

«سأعد فنجانين من القهوة لنتناولها في المطبخ.»

لحقت به جين بعد تردد. بدأ الموقف كله يأخذ طابع الحلم، يسوده جو غير واقعي. حتى وبدأت جين تتساءل عما يمكن أن يحدث بعد ذلك.

«اجلسي. سأحضر لك قرصين من المسكن للصداع بعد دقائق. لن تحسّي بثقل في رأسك غداً اذا ما تناولتهما مع القهوة. هل انت جائعة؟»

«كلا، شكراً.»

هل ان ما يحدث الآن حقيقي. هل هي بالفعل في منزل ذلك الرجل، على وشك ان تنام في إحدى غرفه. تساءلت وهي لا تقوى على النظر اليه:

«آمل ألا نوقظ مديرة منزلك.»

«تحاولين أن تعرفي ما إذا كان شخص آخر غيرنا في المنزل؟»

«أعتقد أن هذا هو ما قصدت بالفعل.»

«أنا آسف أن أقول لك إننا وحدنا تماماً. فمديرة منزلي وزوجها يسكنان بيتاً صغيراً في الحديقة.»

وضع أمامها قدحاً من القهوة الداكنة ووضع جوارها اللبن والسكر قائلاً:

«لا تقلقي. فأنا لا أغازل الأطفال.»

شهقت جين وقد اشتعل وجهها. ثم تلعثمت قائلة:

«أنا لم أقصد.»

«نعم لقد قصدت ذلك.»

أتى بزجاجة صغيرة وضعها أمامها ثم سحب مقعداً وجلس وقال:

«لا تستشيطي غضباً هكذا. فمن الطبيعي تماماً أن تسألي وتطمئني. وقد أجبتك، والآن ارجوك ان تنسي هذا الموضوع.»

ربت على الزجاجة قائلاً:

«تناولي قرصين من هذا الدواء واشربي قهوتك. لقد تجاوزت الساعة الثالثة صباحاً، ولست أنت وحدك المتعبة.»

كانت أفكار جين مشوشة وذهنها في حالة اضطراب وقد اختلطت فيه الانفعالات. فتحت الزجاجة وتناولت قرصين. وبيد مرتعشة احتست القهوة وهي تلهث قليلاً. كيف يمكنه أن يكون قاسياً الى هذه الدرجة. أدركت كم هي في الحقيقة مجهدة، ثم انحنت وربتت على ظهر الكلب الرابض في جوارها.

«سأصحبك الى غرفتك.»

ابتلعت جين الجرعة الأخيرة من القهوة. ثم نهضت واضطرت للامساك بالمنضدة بعدما شعرت بالغرفة تتأرجح. قطب غانن جبينه متسائلاً:

«ألا زلت تشعرين بالاعياء؟»

«كلا، انني مجهدة فقط.»

قادها الى البهو ثم ارتقيا سلماً. كان كل شيء على درجة كبيرة من

الفخامة. كان الضوء ينعكس في توهّج على اطارات المرايا المذهبة والنوافذ الواسعة العالية. وعندما وصلا الى الطابق الأعلى مس ذراع جين بخفة قائلاً:

«من هنا.»

قادها الى غرفة صغيرة ذات أثاث جميل. كان غطاء السرير أبيض وقد تناثرت سجاجيد بيضاء على ارض الغرفة.

أضاء النور ثم أشار الى باب في داخلها قائلاً:

«هناك تجدين حماماً مستقلاً فيه كل ما تحتاجين اليه. فستجدين أيضاً تشكيلة من ثياب النوم في الدرج الاول من منضدة الزينة سأذهب لأدخل كارلو وأغلق الأبواب. اذا احتجت الى شيء ما، فما عليك إلاّ أن تطلبي.»

مشى عائداً الى الباب ثم توقف قليلاً ناظراً الى جين التي كانت تقف قرب السرير.

«ليس للباب قفل لكني أعدك بأن أحداً لن يزعجك.»

«اشكرك.»

خرج، وأغلق الباب خلفه في هدوء. أطلقت جين آهة مرتعشة. جلست في فراشها محاولة أن تستجمع شتات أفكارها. هل يمكن أن يكون هذا هو الرجل نفسه الذي رأته يفرض رأيه، متسبباً في ذلك المشهد الكريه في المطار؟ وماذا سيكون رأي الخالة دورثي في كل ما حدث ويحدث؟ لم تجسر على الاستمرار في التأمل. توجهت الى الحمام. كان مزخرفاً في رقة وجمال وقد غطيت جدرانه بقرميد أزرق فاتح، كما ثبت في الحائط حامل للنباتات.غسلت جين وجهها ويديها

ونظفت أسنانها، وشعرت على الفور بتحسن كبير. عادت مرّة أخرى الى غرفة النوم وأخرجت أقرب ثوب نوم ثم أرخت شعرها وأطلقته من دبابيس الشعر الخانقة وهزته بحرية وهي تطلق زفرة ارتياح. رفعت يديها الى الخلف لتفتح سحاب ثوبها، ثم جذبت. لم يحدث شيء. جذبت مرة ثانية بقوة أكثر. جفلت جين بعد أن تشابكت خصلة من شعرها مع الأسنان الدقيقة للسحاب. دمدمت في تبرم بعد أن تعبت يداها من المحاولات المتكررة. انتظرت لتلتقط أنفاسها، ثم بدأت محاولة جديدة دون جدوى. وذعرت. ماذا ستفعل الآن؟

حاولت جين أن تسحب الثوب الى أعلى، لكنه كان محكماً عند الوسط وبعد بضع دقائق من الكفاح الصامت المتجهم الذي كانت تخشى أن تمزق بسببه خامة الثوب الرقيقة استسلمت جين .لم يكن أمامها سوى شيء واحد هو أن تطلب مساعدة غافن وبسرعة، وقبل أن تخذلها عزيمتها، فتحت الباب ونظرت نحو السلم. قد يكون في المطبخ وهذا أفضل بدلاً من أن تضطر الى الذهاب الى غرفة نومه.

هبطت جين السلم في هدوء وسارت عبر البهو حتى وصلت الى المطبخ، وبعد لحظة انتظار تستجمع فيها شجاعتها دفعت الباب.

لم يكن أحد في المطبخ.انتابها شعور مفاجيء بالذعر. كان كل شيء يسوده الصمت وكأن غافن و كارلو اختفيا. توجهت صوب الباب المفتوح ثمّ خطت الى الخارج، .لم تكن تجرؤ على مناداته، ففضلت الانتظار وفي اللحظة التالية ظهر كارلو يركض بخفة وكأنه يعرب عن سعادته برؤياها.

خطت جين خارجة عن دائرة النور المنبعثة من باب المطبخ

وارهفت السمع. جاءها صوت البحر اشبه بهمس ناعم يصدر عن كائنات مجهولة تعيش في تلك الأعماق الخضراء الباردة. ارتعشت وقد أحسّت فجأة بالبرد، ثم رأت من على بعد غافن يتقدم نحوها. وبشكل غريزي تقدمت الى الأمام.

«جين، ماذا هناك؟»

«لا أستطيع فتح سحاب ثوبي.»

«تريدينني أن أفعل ذلك بدلاً منك أليس في ذلك مخاطرة؟»

«ابتعت هذا الثوب من محلك. الخطأ ليس خطأي.»

«تعالي الى الضوء»

«آملُ أن يتم الأمر هنا.»

«يا لك من طفلة حمقاء.»

مدّ يده وأمسك بشعرها يدفعه الى الأمام. مست يده رقبتها، فأحست برعشة. كان ذلك بمثابة صدمة مفاجئة. تنفست جين تنفساً عميقاً، ثم ابتعدت قليلاً. أحست بأنامل غافن الطويلة عند رقبة ثوبها، ثم عند الظهر، ثم بدأ قلبها يدق بعنف فخشيت أن يسمعه. وقفت ساكنة تماماً، غير قادرة على الحركة سمعت همهمته المتعجبة وهو يقول:

«كيف تنتظرين مني أن أصلح لك السحاب في الظلام؟»

كانت أصابعه دافئة تمس عنقها وشعرت بشيء من الطمأنينة وهو يقول في رقة:

«أعتقد أنني نجحت. لقد كان هناك بعض...»

توقف فجأة. فقد حدث شيء غريب. سمعا ضربات أجنحة خشنة

صاحبتها صرخة حادة، في حين مر أمامها شبح أسود. استدارت جين وتشبثت بعنف بغافن وقد أحسّت بذعر مفاجىء.

«انه مجرد خفاش. وسبق لك وقلت أنك لا تخافين الخفافيش!»

ولم ترد جين. وخيم الصمت على المكان واستمر قلب جين في الخفقان بصورة زادت من إحساسها بالدوار، وغمر كيانها كله احساس غريب لم تكن تتخيله وذلك عندما ضمها غافن اليه.

وفجأة وبفظاظة قاسية ابتعد عنها، وبصوت مرتعش قال:

«يا إلهي، أنت لا تعرفين ماذا تفعلين!»

وبينما كانت جين تقف مرتعشة من جرّاء ما يصطرع داخلها من ردّ فعل غير قادرة بعد على الحركة، استعادت فجأة ذكرى مؤلمة، ما زالت تحتفظ بقسوتها، ذكرى عن خالتها، عن شيء يماثل هذا الموقف بشكل ما فقد عادت يوماً من المدرسة وقد ملأتها السعادة، توّاقة لأن تبلغ الخالة دورثي انها فازت بجائزة في الرسم. ألقت بذراعيها حول خالتها، تحتضنها، لكنّ الخالة دورثي دفعتها بعيداً وهي تصيح في دهشة وقد زمّت شفتيها:

«ماذا تفعلين بحق السماء؟»

خرجت جين من الغرفة حينذاك وحيدة وقد أحسّت كم هي مرفوضة بشكل تعجز عن وصفه. ها هو التاريخ يعيد نفسه. إنها تشعر بالاحساس نفسه الآن. ملأ صدرها ذلك الألم المألوف، يتصاعد ليصل الى حنجرتها وقد أوشك أن يخنقها، استدارت صارخة وركضت نحو المنزل.

تسمع وقع خطواته وهو يتبعها:

« جين انتظري.»

«دعني، ابتعد عني.»

انكمش جسدها خوفاً من التعرض لمزيد من الاذلال، بينما كانت تسير متعثرة في المطبخ.

«انتظري.»

أطبقت على ذراعها يد قوية، ليسقط شعرها على وجهها في فوضى جامحة وهي تتلوى يائسة تحاول تخليص نفسها من تلك القبضة الصلبة.

«لا تلمسني...»

هل كانت مجنونة عندما سمحت لنفسها بأن تستجيب بهذا الشكل الى لمسة ذلك الرجل.

ظلّت مشيحة بوجهها بعيداً حتى تتهرب من تلك السخرية التي تعلم تماماً أنها ستراها في عينيه. كان يجب أن تعرف ذلك. أليس هو وخالتها على شاكلة واحدة .

لم يكن هناك جدوى. فقد كان أقوى منها كثيراً. تنهدت ثم ارتخت غير قادرة على الاستمرار في مقاومته:

«أنظري الي يا جين .»

رفعت رأسها، وكأن قوّة عظمى لا تستطيع مقاومتها دفعتها الى ذلك. كانت عيناها مليئتين بالدموع وقد ابتلّت أهدابها الطويلة الحريرية فأصبح لونها داكناً. انتظرت كلماته. أصبحت عيناه داكنتين جداً. لم يكن فيهما أي أثر للسخرية التي كانت تخشاها. لكن كان فيهما شيء آخر. قال :

«أنا آسف يا جين .»

انتزعت ذراعها من قبضته وتراجعت وهي تصرخ:

«آسف؟ أنا واثقة أنك آسف حقاً ـ لماذا لا تنفجر ضاحكاً؟»

تقدم نحوها فصاحت :

«ابتعد عني. اني أكرهك، أتسمعني؟ أكرهك.»

رفعت يدها الى فمها وكأنها تحاول ان تمنع نفسها من الاسترسال. ثم هرعت خارجة من المطبخ.

٦ ـ المشروع

تقلبت جين في الفراش أرقة بلا جدوى أن تجد في النوم ملاذاً فبرغم أنها كانت منهكة القوى فانها ظلّت يقظة متنبهة وهي مستلقية وسط الظلمة تسمع دقات ساعة حائط البهو أطل الفجر، حين خلدت الى النوم أخيراً.

استيقظت على صوت نقرة خفيفة على الباب، وصوت يقول:

«أتسمحين لي بالدخول؟»

ظلت مستلقية في فراشها في صراع بين النوم واليقظة، حتى استيقظت تماماً، ووعت أين هي وكيف وماذا حدث فهبت جالسة

تحرك مقبض الباب بلطف.

«جين هل استيقظت؟»

«كلا ـ أذهب عني .»

كان صوتها خفيضا لايمكن لأحد أن يسمعه، وعندما فتح الباب، استلقت بسرعة على الوسادة وجذبت الغطاء عليها. لم تكن تريده أن يراها، ولم تكن تود أن تنظر إليه وتساءلت عما إذا كانت ستتمكن من

النظر اليه مرة ثانية

«أحضرت لك القهوة.»

لزمت مكانها، متصلبة، تمسك بالأغطية بقوة حول وجهها الذي أشاحت به بعيداً عن الباب.

«شكراً لك.»

كان صوتها مكتوما، لكنّه مسموع.

«إنها الحادية عشرة. هل تودين أن تأكلي شيئاً؟»

«كلا، أشكرك. اذهب واتركني وحدي.»

سمعته يضع فنجان القهوة وبعد لحظة سمعت صوت إنغلاق الباب. نهضت جين وقد عزمت ألاّ تبقى أكثر مما ينبغي في منزل غافن فبعد دقائق ستخرج من منزله بلا رجعة. وهكذا صار.

عندما وصلت الى المنزل وذهبت لتلقي والدها تمكنت من أن تتظاهر بأنها طبيعية. حيّاها بولع، ناظراً الى وجهها المتعب بفضول قلق، ثم قال:

«ترك لي غافن مذكرة تحت الباب الليلة الماضية أسف لأنك لم تستطيعي دخول المنزل ولكني واثق برغم ذلك أنك شعرت بالراحة في منزل غافن. فهو مضيف ممتاز.»

«نعم، إلاّ أنني لم أستطع النوم جيداً. كان الوقت متأخراً كما أنني لاأستطيع أن أنام في فراش غريب.»

فكرت في فراشها الآمن ثم قالت:

«أعتقد أنني سأستحم ثم احاول النوم.»

«استريحي كما يحلو لك. سيحضر ماك لتناول الغداء معنا. هل

التقيت به أمس؟»

«نعم، إنه رجل ظريف جداً.»

لم تكن تريد أن تفكر في تلك الحفلة المشؤومة، وسيكون ذلك بالقطع مستحيلاً مع مجيء ماك. فإنّ والدها يريد طبعاً أن يسمع كل مادار في الحفلة. كانت تعرف أنها ستشعر بتحسن بعد النوم، كما انها في حاجة الى وقت تفكر فيه على انفراد.

بعد مرور ساعتين، أحست جين بالراحة والانتعاش وبأنها استعادت حالتها الطبيعية. نزلت وقد ارتدت أحد أثوابها القطنية الجديدة كان لونه أخضر صارخاً مبرزاً لون عينيها. كان شعرها ممشطا الى الوراء في استرسال.

كان ماك يجلس مع أبيها في فناء ظليل خلف المنزل. نهض يحييها قائلاً:

«كنت أقصّ على أبيك كيف كنت نجمة الحفلة.»

قالت جين ضاحكة:

«لاتصدّقه يا أبي لقد كان هناك عدد من الحسناوات.»

«نعم بالفعل، لكن لم تكن من بينهن مثيلة لك. استاءت الحسناء سارة جداً لرحيلك مع غافن. هل كان سبب اعيائك هو تلك الوجبة الدسمة؟»

«نعم.»

نظر اليها قائلاً وقد تذكّر شيئاً:

«عثر كولن على مفتاحك ومعه دثاربني. لاشك أنه سيحضرها»

«أوه نعم.»

تناول الجميع طعامهم في الفناء. جلس جون وماك يتحادثان في ودّ، وقد أعطاها ذلك وقتاً للتفكير، عادت بأفكارها الى غافن. لم يكن في المنزل عندما نزلت الى الطابق الاسفل. كان الباب الخلفي مفتوحا ولم يكن هناك أثر لكارلو أيضا. تركت له مذكرة شاكرة له ضيافته وانسلت خارجة من المنزل.

ترى هل سيحضر غافن الآن الى منزل والدها؟

إن حضر فلعلّه نسي بالفعل ذلك الحادث التافه. فغافن من ذلك الطراز. كان يعتبرها طفلة، أنانية تسعى وراء المال، لكنها في النهاية مجرد طفلة. كم كان سلوكه مختلفاً مع سارة.

لاتزال نظرته وهو يحيّ سارة قبل الحفلة تتراءى لجين، كان فيها شيء من العاطفة. حتى أنها بمجرد التفكير فيها الآن، أحسّت بانفعال عاطفي لا تعرف كنهه. تراءى لها من جديد وجه سارة مرفوعاً وهي تتلقى تحية غافن، سارة بملامحها الجميلة، واثقة مطمئنة. كم هو رائع أن يكون المرء هكذا، أن يكون ممتلئاً ثقة بالنفس، أن يعرف أنه محبوب.

أنزلت الملعقة من فمها وقد أحستّ أن حلوى القشدة المخلوطة بالخوخ ذات النكهة اللذيذة تحوّلت في فمها إلى شيء جاف كريه المذاق.

رمقها ماك قائلاً:

«أمل، ألاّ تكوني ملتزمة بنظام غذائي معين ؟»

تمكنت جين من افتعال ضحكة وقالت:

«كلا، لكني لست جائعة.»

«ربما كان ذلك بسبب الطعام الكثير الليلة الماضية.»
«أتأذنان لي ؟»

دفعت مقعدها الى الوراء، وتوجهت الى غرفتها. توقفت في طريقها كالعادة لتنظر الى لوحات والدها. تحسست برفق لوحتها المختارة ومست بأطراف أصابعها ثنايا الألوان الزيتية السميكة لمشهد طفل وكلبه يحدقان باشتياق في زورق صغير وسط بحر هادىء.

صعدت السلم وهي تتنهد، مطرقة الباب ترتفع وتطرق مرتين بقوة. تحركت جين في هدوء أعلى الدرج، ووقفت بعيدة عن الانظار وقد سمعت مديرة المنزل تطقطق بخفيها قادمة من المطبخ. خفق قلبها، وجف حلقها، فقد كانت تعلم من الطارق قبل أن تسمع صوته قائلاً:

«مرحبا يا إلن. هل جون في المنزل؟»

«مرحباً ياسيد غافن . كان عليك أن توقظني عندما جئت الى المنزل مع الآنسة جين.»

تشبثت أصابع جين بشكل لاارادي بدرابزين الدرج. سمعت غافن يضحك بدأ قلبها يخفق بعنف، تلاشى صوتاهما تدريجياً وابتعدا في اتجاه البهو فتنفست جين الصعداء.

إنه هنا إذاً. سيكون عليها أن تنزل وتواجهه. عليها أن تفعل ذلك في وقت من الأوقات، وربما يكون الضغط أخف في حالة وجود ماك أيضاً. ذهبت الى غرفة نومها، مشطت شعرها، ووضعت من جديد أحمر الشفاه. لم يكن في وسعها أن تفعل شيئاً لازالة ذلك اللون الداكن تحت عينيها.

ووقفت جين في غرفة الجلوس بضع دقائق محاولة استعادة قدر

من الاصرار الذي أحست به منذ قليل في الطابق الأعلى. كان يمكنها أن ترى الرجال الثلاثة في الفناء عن بعد. وقد حجبهم بشكل جزئي حائط يستظلون به، كان في وسعها أن تسمع أصواتهم، أن تسمع ضحكة غافن فأوشكت أن تدور على عقبيها عائدة.

خرجت جين الى الفناء وقد بدت في الظاهر هادئة ساكنة وإن كانت ترتجف من الداخل. قالت وكأنها فوجئت بوجوده:

«مرحباً ياغافن. أشكرك مرة ثانية على ضيافتك.»

نهض غافن وقال:

«أهلا بك ياجين.»

لاحظت ارتعاشه ما في وجهه ونظرة حائرة ـ وكأنه كان يتوقع أن يراها بصورة مختلفة... زاد ذلك من ثقة جين. توجهت نحو مقعدها وجلست. نجحت في اجتياز أولى العقبات وأصعبها. والآن يمكنها أن تواصل مسيرتها دون تردد.

دخلت إلن لترفع بقايا المائدة، وجلست جين في صمت تتمنى أن يذهب غافن . ظل يرمقها بين الحين والآخر، لكنها مع مرور الوقت اكتسبت مزيداً من الثقة في النفس، وأصبحت قادرة على مبادلته النظر في هدوء.

هدأ الحوار برهة لتسمع صوت غافن يقول:

«كيف تسير مشروعك ياماك؟»

كانت جين ترقب وجه ماك بينما كان غافن يوجه اليه الحديث، أحست بالحيرة إزاء التعبير الذي علا وجهه. أجابه ماك وقد رفع أحد حاجبيه في اهتمام واضح:

«أتعني مدرسة الحضانة؟ على خير.»

«هل عثرت على واحدة تحلّ محل شيرلي؟»

كانت جين ترقبها وهي تسائل نفسها. لقد كان ماك على وشك أن يقول شيئاً فلماذا قاطعه غانن. استطرد ماك قائلاً:

«لم أعثر على أية متطوعة اذ ليس من السهل أن تعثر على متطوعات.»

ابتسم فجأة لجين وهي ترقبها قائلا:

«لو لم تكن جين آتية الى هنا في عطلة لسألتها.»

نجح في اثارة حب الاستطلاع لدى جين فردّت على بسمته ببسمة أعرض منها متسائلة:

«ماذا كنت ستسألني؟»

«كنت أمزح فقط . فأنا لا أحلم»

قطع حديثه ونظر الى غانن بسرعة. فاستحثته جين متوسلة:

«أرجوك استمر.»

«حسناً، بدأت اعداد دار صغيرة للحضانة خارج بورت بارتريك لأطفال عاملات مصنع التعليب. وهذا يعني أننا سنحتاج الى مزيد من الايدي العاملة ـ من أمهات أطفال تتراوح أعمارهم مابين ثلاث وست سنوات. إنه مشروع مازال في مرحلته التجريبية. ميغان تحضر يومين في الأسبوع. كما أن هناك أخريات. شيرلي موراي كانت تساعدنا أيضاً لكنها ستتزوج الأسبوع القادم، وهكذا فالمشروع مهدد بالتوقف.»

هز كتفيه معتذرا عن الاستطراد في الحديث قائلاً:

«أنا أكثر الكلام في هذا الموضوع فارجو المعذرة.»

«ماذا يتطلب هذا العمل بالضبط؟»

«الأشياء المعتادة تعليم أوليّ جداً، ومراقبة الأطفال أثناء لعبهم. أصبحوا الآن يتوقون الى المجيء بدلاً من أن يلعبوا في الشوارع كما اعتادوا. فكل أسبوع يتقدّم لنا أطفال جدد. إنّ هذا الوضع يذكرني بكرة الجليد التي تتكاثر كلما استمرّت في التدحرج.»

«هذا يبدو رائعاً.»

استرخت جين وقد انحنت الى الأمام وشبكت يديها وسقط شعرها الناعم الى الأمام، حاجبا وجهها. نظرت الى والدها، الذي لم يكن يفوته شيء، وهو يراقب في صمت.

«أنا أرغب في المساعدة.»

تلعثمت قليلاً وقد رأت تعبير وجه والدها لكنّه قال برفق:

«ليس لدي أية نية لمنعك إذا كنت ترغبين في الذهاب. لدي إحساس أنك ستجدين هذا المشروع ممتعاً.»

ساد الصمت هنيهة، وأدركت جين أن غانن لم ينطق بكلمة أثناء هذا الحوار. جعلها هذا أكثر تصمياً فقالت:

«ماك . أنا أودّ المساعدة. قبل أن أحضر هنا اجتزت امتحان القبول في كلية تدريب المعلمات. وهذا سيكون تدريباً جيداً لي.»

ألقى ماك رأسه الى الوراء ضاحكاً وقال:

«أتنوين ذلك حقا؟ أنت فتاة رائعة ياجين. متى ستأتين غداً؟»

«نعم . إذا أردت. هل يوافقك هذا يا أبي ؟»

أومأ وقد علا وجهه بعض الانفعال ثم مدّ يده رابتاً على يدها وقال:

«بالطبع ياجين. أنا سعيد بك.»

ملأتها كلماته بوهج دافئ، لكنه خبا حين تساءل ماك:

«ولكن كيف ستصلين الى هناك؟»

«لم أفكر في هذا الأمر.»

تحدث غافن قائلا :

«يمكنني أن أمرّ عليك في الثامنة وأنا في طريقي الى المدينة، لو كان هذا مناسباً؟»

نظرت الى ماك آملة أن يقترح بديلاً آخر لكنه هزّ رأسه بانشراح قائلاً:

«أشكرك يا غافن . وفي هذه الحالة ساقلك انا في طريق العودة ومعي جين.»

لم تكن هناك وسيلة للتراجع. ليتها كانت تعرف قيادة السيارة.

«شكراً لك»

لم تستطع أن تتمالك نفسها فجاءت نبرتها مفتقرة الى الرقة. ثم أضافت:

«سأتعلّم القيادة، حتى أتمكّن من أن أذهب بمفردي.»

قال غافن :

«ليس الأمر بهذه السهولة ياجين.»

نظرت اليه، فرأت تلك البسمة المتعالية قالت وعيناها تشعّان بالتحدي:

«لاأستطيع أن أعرف ذلك قبل أن أجرّب، أليس كذلك؟»

هزّ كتفيه قائلاً:

«أنت محقة، إنّ سيارتي على بعد أمتار. هل تودين أن تتلقي درساً

الآن؟»

سمعت جين ضحكات والدها و ماك اللاهية كما رأت تلك البسمة الخاطفة التي مسّت شفتي غافن. إنه يتوقع أن ترفض نظرت اليه بعينين واسعتين قائلة:

«ألا تخشى أن أقود بك السيارة وأصدمها في أقرب شجرة؟»

«لا....»

«أنت حر. وعليك تحمّل النتائج.»

لم تعرف لماذا قالت هذا ـ وكأن الكلمات خرجت من تلقاء نفسها ـ أحسّت بالبرودة تسري في مفاصلها عندما نهض من مكانه قائلاً:

«اسمحوا لي ، سأعود بعد دقائق.»

دخل الى المنزل دون أن ينظر وراءه.

نظر ماك الى جون الذي كان يراقب جين وقال له:

«أتعرف ياجون إنّ ابنتك فتاة شجاعة.»

«بدأت أعتقد ذلك.»

«أنا أسفة يا أبي، لا أحب أن أكون فظّة مع ضيوفك، لكن ـ »

«لاتقولي شيئاً ياجين، فغافن يستمتع بمثل هذه المشاحنات، أليس كذلك ياماك؟»

«نعم، أعتاد أن يطيعه الجميع ولا أشك أنه سيثيره أن يلتقي شخصاً لايخاف أن يفصح عن رأيه بصراحة.»

منعها صوت وقع أقدام قادمة من أن تجيب عليه. رفعت رأسها لترى غافن قادماً.

نظر غافن اليها قائلاً:

«هل أنت مستعدة؟»

نهضت جين متجهة الى الخارج وهي آسفة على قبولها تحدّي هذا الرجل. أيّ جنون هذا الذي تملكها؟ أبعد كل الذي حدث، ترضى بالعدو اليه؟

«هل تشعرين بالتوتر؟»

سألها في رقة وهو يفتح لها الباب الخارجي مشيراً لها بالخروج قبله.

«كلا. هل يجب أن أكون متوترة؟»

كانت في الحقيقة متوترة. ترددت وهي تهبط الدرج، بل إنها أوشكت على التعثر ـ قال وكأنه أحس بهذا التردد:

«لست مضطرة الى الخروج معي.»

«ألا يروقك أن أنسحب ؟»

نطقت جملتها هذه وهي تصرّ على أسنانها، واتجهت رأساً الى مقعد القيادة.

«انتظري لحظة، ستجلسين الى جواري أولاً، لاحظيني وأنا أقود، ثم يأتي دورك. أراها كيف تدير المحرك وانطلقت السيارة. وبدلاً من أن يتجها الى اليسار صوب بورت باتريك اتجها ناحية اليمين فتساءلت جين:

«الى أين نحن ذاهبان؟»

«الى المطار. فليس هناك حركة يوم الأحد. ستجدين مساحة كافية لتتعلمي القيادة.»

«مساحة بلا أشجار. أهذا ماتعنيه؟»

ضحك قائلاً وهو يرمقها بنظرة ساخرة:

«يمكنك أن تقولي ذلك. ألا يعوزك الردّ أبداً؟»

«معك كلاّ.»

أنها لم تتعامل بمثل هذه الطريقة مع أحد غيره، كان فيه شيء مايثير فيها غريزة فطرية للانتقام. لن تنتصر عليه أبداً. كانت تعرف ذلك حتى قبل أن يجيب، خفض عينيه الى يديها وقد شبكتهما بتوتر على حضنها، ثم سألها ببرود:

«هل أنت دائماً متوترة هكذا، أم أن هذا يحصل معي انا فقط؟»

حاولت أن تستعيد هدوءها ثم قالت:

«لست متوترة، أنا أحاول أن أركز تفكيري على ماتفعل لقد طلبت مني أن أرقبك.»

«أقدّم لك اعتذاري.»

كانت تكمن في صوته نغمة ضاحكة، تلك العجرفة اللاهية تثير جنونها. أنه شخص لايحتمل، مثل الخالة دورثي ، انه دائماً على حق.

«بعد بضعة أميال سأترك لك عجلة القيادة. اتفقنا؟»

خفض من سرعة السيارة. لقد وصلا الآن الى الحدود الخارجية لأرض المطار العتيق، الذي كان هادئاً ومهجوراً. أوقف غافن محرّك السيارة وقال وهو يهبط من السيارة:

«الآن لنتبادل أماكننا.»

زحفت جين الى مقعد القيادة وأمسكت بعجلة القيادة التي كان فيها شيء من دفء يديه.

قالت جين محدثة نفسها. إن هذا الأمر مضحك. فها أنا على وشك

أن أتعلم القيادة على يدي الرجل الذي قررت أن أتحاشاه تماماً، وهو سيراقب الآن كل حركاتي ـ وعليّ أن أتحمل ذلك طوال ساعة أو أكثر.

جلس الى جوارها وقد مد ذراعه على ظهر المقعد قائلاً:

«هل كل شيء على مايرام؟»

تحركت السيارة بارتجاج في بادىء الأمر ثم بسلاسة أكثر عندما تلمست طريقها الى محرك السرعة.

«حسناً...»

كان صوته هادئا. وأحستّ جين بجسدها المتوتر يسترخي بينما كانت تذعن لتعليماته. امتدّت يده مرة وحركت يديها على عجلة القيادة. كانت لمسة سريعة خفيفة لم تدم سوى لحظات.

كانت تمتثل له طواعية دون أي ارتباك أو تردد. وأدركت فجأة أيضاً أنها تشعر بالمتعة.

طلب منها أن تتوقف قائلاً:

«أحسنت حتى الآن.»

أحست جين فجأة وكأن قلبها يترنح ثم أعقب ذلك وهج دافىء. كم هو أمر مضحك هذا التناقض في مشاعرها نحوه.

بعد مضي ساعة توقفا. كانت تتصبب عرقاً وقد أحستّ بألم في جسدها كله بفعل التركيز الذي بذلته طوال الساعة الماضية. جلست ساكنة تنتظر تعليماته.

«سنستريح الآن، انزلي ومدّي رجليك، فأنت في حاجة الى فترة راحة.

نزلت، وقد أحستّ بمفاصلها متخشبة مرتعشة. كان يرقبها بنظرة لاهية ثم سألها بتحفظ:

«أتحتاجين الى مساعدة في السير؟»

نصبت ظهرها المتألم وأخذت تضمّ أصابعها وتبسطها، ثم قالت وهي تتلفّت حولها:

«كلا شكراً. الى أين نحن ذاهبون؟»

«سترين. تفضلي من هنا.»

تبعته وقد اختفى وراء كوخ من الأكواخ الجاهزة البناء، برميلي الشكل ذلك الكوخ الذي كان أول شيء تراه عندما وصلت الى سارامنكا.

دخلا الى الكوخ المهجور، كان وقع أقدامهما على ارض الكوخ الاسمنتيه يتردد في صوت مكتوم بينما كان يقودها صوب باب في مؤخرة الكوخ. وجدت نفسها تتساءل:

«ما من أحد هنا، هل من المسموح لنا أن ندخل ؟»

«نعم »

أجابها بنبرة هامسة تردد صدى نبرتها، ثم أبطأ خطواته وأمسك بذراعها بطريقة غريبة أحست فيها بالحماية وقال:

«هناك مطبخ في المؤخرة فيه ثلاجة ملأى بالمشروبات والثلج تريدين مشروباً بالتأكيد أليس كذلك؟»

أحست بأصابعه على ذراعها وكأنها كتلة نار. وأحستّ بالارتياح عندما سحب يده ليفتح لها الباب وقد تراجع خطوة ليفسح لها الطريق.

كانت الحجرة الصغيرة شديدة الحرارة فسال العرق من جديد على جبهة جين. أشار لها أن تجلس في أحد المقاعد فارتمت فيه

وضع كوبين على المنضدة وأخرج علبتين مرطبات من الثلاجة ثم

ألقى عدداً من مكعبات الثلج في الأكواب وفتح العلبتين وقال:

«ليس في الثلاجة غير هذا النوع من المرطبات.»

هزّت رأسها قائلة:

«لا بأس.»

أخذ السائل الذهبي ذو الرغاوي يتساقط كالشلاّل على الثلج بينما كانت جين تراقبه بنهم. أحستْ وكأنه ألذ مشروب تذوقته في حياتها. أخذ مقعداً لنفسه وجلس فيه وكأنه يمتطي سرجا مسنداً ذراعيه على ظهر المقعد. أخذ يرقب جين بنظرة تائهة ثم قال:

«أحسنت القيادة. هل أكتفيت بهذا القدر اليوم؟»

«سأترك ذلك لك.»

أجابته وهي تزحلق أصبعها على الكوب المثلج. اكتشفت أنها لاتستطيع مبادلته النظر في ثبات، الأمر الذي كان مثار قلقها.

«أعتقد أنك أخذت كفايتك. يبدو عليك الاجهاد.»

صمت برهة ثم أضاف:

«هل لي أن اطرح عليك سؤالاً؟»

أجفلها السؤال لكنه بادر مستطرداً:

«أريد أن أسألك شيئاً يتعلق بماك»

قالت وقد هدأت:

«ماذا ؟»

«لماذا عرضت أن تساعديه في مدرسته؟»

«لأني أردت ذلك. هذا العمل يبدو ممتعاً. ولماذا تسأل»

«أنت الآن في عطلة. وما من أحد كان يتوقع أن تتطوعي لهذا العمل.»

عادت الى ذهنها تلك الصورة، وهم جالسون في الفناء في منزل والدها، كيف أن غافن هو الذي أثار الموضوع أولا، وكيف كانت النظرة التي علت وجه ماك وتعمّد غافن مقاطعته عندما كان ماك على وشك أن يقول شيئاً. أحستْ جين أنها على اهبة اكتشاف شيء ما. اطلقت زفرة عميقة ثم نظرت اليه متسائلة. فقد كانت في حاجة لأن تعرف.

«قل لي. كنت أنت أول من أثار الموضوع. لقد فعلت ذلك بغرض ما. ماهو؟»

ابتسم ورفع يده اليمنى في حركة استسلام قائلاً:

«أنت ذكية جداً ياجين.»

قالت بعناد وقد شددت قبضتها على الكوب:

«وجهت اليك سؤالاً.»

جاء صوته رقيقاً:

«نعم كان لي هدف كنت أودّ أن أعرف أذا كنت ستتطوعين أم لا.»

«لماذا ؟»

«أرجعي هذا الى حبّ الاستطلاع.»

قال جملته الأخيرة محدّقا فيها وكأنه يتحداها أن تسأله لمزيد.

«ظننت أنني لن أتطوع، أليس كذلك؟»

«تصوّرت ذلك بالفعل.»

نهضت وجذبت حقيبتها بشدّة من المنضدة اجتاحها غضب مفاجيء. أحستْ أنها ستختنق اذا لم تقل فقالت:

«أنا آسفة لأني خيّبت ظنّك. والآن أريد أن أعود الى المنزل

«هل أغضبتك ؟»

قاومت بشدة حتى استطاعت أن تتمالك نفسها ثم قالت:

«نعم أغضبتني. من تظن نفسك؟»

«قلت لك الحقيقة. فأنا لاأكذب. هل كنت تحبين أن أنفي ذلك؟»

«بأي حق تخضع الناس لمثل هذه الاختبارات؟ أنت متعجرف بشكل لايطاق، لقد توقعت ان افشل في محاولة القيادة أليس كذلك؟»

«كلا لم أفكر في الحقيقة في هذا الموضوع. وأنت لن تصلي الى شيء اذا فقدت أعصابك معي.»

أطلقت ضحكة وهي تقول:

«كلا! أنت ـ أنت تتصور أنك تملك الجميع أن بوسعك أن تفعل ماتشاء. حسناً، ليس الأمر كذلك معي ياسيد غرانت. فانا لست أمرأة صينية مسنة يمكنك أن تطردها، أؤكد لك ذلك.»

كانت ترتجف وقد ملأتها رغبة جارفة في أن تضربه اتجه نحوها ثم وقف أمامها مباشرة قائلا:

«سيدة صينية؟ ماذا تقصدين؟»

«أخالك نسيت!... إن هذا لايدهشني.»

استدارت لتفتح الباب وتخرج من الغرفة الخانقة بعيداً عنه، فمدّ يده وأغلق الباب من جديد قائلاً:

«لم ننته بعد.»

استدارت نحوه ثم قالت في حدّة:

«افتح الباب، لن أمكث هنا معك دقيقة واحدة بعد الآن.»

«بل ستمكثين، الى أن تفصحي عما تعنيه.»

«رأيتك في مطار جافر تعرض آرءاك على مجموعة من الموظفين وتمنع تلك المرأة المسكينة من أن تستقل الطائرة. الى أين اقتادوها؟ الى غرفة التعذيب!»

في تلك اللحظة انفجر ضاحكا. ثم تمالك نفسه قائلاً:

«ياإلهي هل بدا الأمر كذلك؟ هل أنت جادّة حقاً؟»

اكتفت بتحريك مقبض الباب محاولة فتحه كرّد على تساؤله. جذبها وأدارها لتواجهه وقد أطبقت أصابعه على ذراعيها قائلاً برقة:

«اجيبي»

«أنا لا أودّ أن أتحدث معك. ارفع يديك عني في الحال!»

«سأصحبك الى المدرسة غداً. ذكريّني ونحن هناك أن أريك شيئاً. ومضت عيناه وأصبحتا أكثر سواداً وقدرة على التغلغل فيها واستطرد:

«وبعد هذا انا متأكد من أنك ستتراجعين عن كلامك!»

٧ ـ مفاجأة في المدرسة

عندما ذهبت جين الى فراشها حال إجهادها المفرط دون استرسالها بالتفكير. فبعد الشجار الذي وقع بينها وبين غافن أوصلها ورحل الى منزله بعد أن قطعا الطريق في صمت مشحون بالتوتر. جاء كولن في تلك الأمسية، وحاول كولن أن يطوقها بذراعيه لكن جين صدته. لم تكن تعرف لماذا بالتحديد، لكن ربما كان ذلك ردة فعل لما حدث مع غافن.

كان ماك موجوداً أثناء زيارة كولن وقبل أن يرحل طلب من جين أن توصله الى السيارة تاركين جون في حجرة الجلوس سعيداً وقد أستنفد قواه في لعب الشطرنج مع ماك وبدا في تحسن واضح.

بادرها قائلاً:

«ابلغتك ميغان إنني أريد من جون أن يعرض نفسه على أخصائي لاجراء الفحوص والاختبارات اللازمة. إنه يصاب بنوبات شبيهة بشلل مؤقت وقد جربت معه أدوية عدة، لكني لست متخصصاً في هذا النوع من الأمراض، ربما تنجحين في إقناعه.»

«أعدك يا ماك أن أبذل قصارى جهدي.»

ربت على كتفها وقال:

«أنا متأكد من ذلك يا فتاتي. كم من الوقت ستقضين هنا؟»

«ربما شهر، لكني أعتقد أنني قد أبقى لفترة أطول. فأنا أرغب في ذلك، وهو طلب مني أن ابقى.»

«أنا آمل أن تفعلي ذلك يا جين . فقد تغيّر بالفعل. رأيت ذلك بنفسي اليوم. إنه رجل وحيد برغم اصدقائه الكثيرين. قبل مجيئك كان يعيش في فراغ. حتى لوحاته أصبحت ضعيفة، وتلك مأساة لمن له موهبته. لكنه الآن، يبدأ من جديد. عثر على ابنته ـ واصبح لديه من يعيش من أجله. وكلما أسرعت بتعلم القيادة كان ذلك أفضل. لأنك عندئذ ستتمكنين من أن تأخذيه في نزهات وبالمناسبة، كيف سار درس القيادة مع غارفن لم أشأ أن أسألك فور عودتك، فقد بديت شاردة الذهن قليلاً.»

«غافن يقول إنني أتقدم على نحو طيب ولكن »

أمسكت عن الحديث فبادرها قائلاً:

«لكنه متعجرف ودكتاتور.»

«لم أقل ذلك...»

«ليس هناك حاجة لأن تقولي، فبوسعي أن أرى ذلك بنفسي. أعرفه أكثر من أي شخص آخر عرفت والده أيضاً لسنوات طويلة. نحن نتوافق جيداً وأنا أحبه وأحترمه فهو مستقيم صادق بمعنى الكلمة. وهو رجل عظيم تجدينه الى جوارك إذا احتميت إليه. لكني أستطيع أن أرى أخطاءه أيضاً. اعتاد منذ صغره ان يكون مطاعاً. ربما لم يكن هذا

خطأه هو. فذلك تأثير المال ـ ليس على من يملكه بل على من حوله. فهم يرتعدون خوفاً من إغضابه. لكن كوني كما أنت يا جين ولا تدعيه يستأسد عليك.»

«لن أدعه يفعل ذلك. وان كان هذا من الصعب.»

أحسّت أنها تحب ذلك الاسكتلندي الصريح وتثق فيه فاستطردت قائلة:

«عشت مع خالتي منذ وفاة أمي. وهي تشبه غافن لقد عشت تحت سطوتها، ولكن منذ مجيئي الى هنا أدركت كم كانت على خطأ.أعتقد أنني أشمئز منه بسببها. أتعرف ما أعني؟»

«لست طبيباً نفسياً، لكني أعرف ما تقصدين. ستكونين يا جين ذات منفعة كبيرة لوالدك وربما لغافن أيضاً.»

بتلك الكلمات ودعها ماك ضاحكاً.

في صباح اليوم التالي كانت جين على أهبة الاستعداد. طلب منها ماك أن ترتدي شيئاً يسهل غسله فارتدت شورتاً قصيراً لونه أزرق، ونزلت تنتظر غافن.

قدمت لها إلن فطوراً دسماً وهي تقول:

«ستكونين مشغولة طوال الوقت يا طفلتي. كلي جيداً فستكونين في حاجة الى كلّ قوّتك.»

سمعت جين طرقاً على الباب، فنهضت مسرعة محاولة الانتهاء من فطورها على عجل.

«لا تضطربي، ففي وسع السيد غافن أن ينتظر لحظة.»

قالت مديرة المنزل هذه الكلمات وهي تنطلق نحو الباب مدمدمة في

استياء.

كان غافن يقف قرب السيارة مع إلن . نظر اليها ملياً قبل أن يحييها بفتور.

قاد السيارة عبر الممر، بينما كانت إلن ترقبها، ولوّحت لها ثم استدارت داخلة المنزل.

سألته جين وهي ترتعش:

«الى أين نحن ذاهبان؟»

«سترين بنفسك.»

جاء ردّه مقتضباً. وأحسّت جين وكأنها قد وضعت كيانها كله في حال تأهب. فمن الأفضل أن تتم هذه المواجهة بسرعة. قطع عليها أفكارها قائلاً:

«قد تخيب المدرسة آمالك. فلن تجدي هناك سوى نساء وأطفال.»

قال ذلك ثم راح ينظر اليها في امعان، فأحست بالغضب يجتاحها لكنها تمالكت اعصابها وقالت:

«أنا لا أفهمك.»

«أعتقد أنك تفهمينني، لن تجدي هناك رجالاً لتؤثري عليهم، ثم إن هذا الشورت الذي ترتديه لن يكون له أي مفعول.»

صرّت على أسنانها قائلة:

«هل تتعمّد أن تكون فظاً؟ إذا كان الأمر كذلك فقد نجحت. لقد ارتديت هكذا لأن ماك طلب مني ان ألبس شيئاً يسهل غسله... في كل حال، أنا لست سوى طفلة وأنا واثقة أن هذه هي نظرتك نحوي فلا يهم إذا ما أرتديه.»

لم تكن متأهبة لرد فعله هذا، فقد تقلصت فجأة عضلات وجهه، وضغط بيديه على عجلة القيادة حتى بدت مفاصلها بيضاء من شدة التوتر.

ماذا قالت حتى أثارت غضبه على هذا الشكل؟

قال:

«لست في حاجةلان تذكريني بسنك.»

ثم ساد الصمت. صمت محيرٌ مثير للقلق. لقد نجح ردها العفوي في أن يسكته.

اخترقت السيارة ميناء بورت باتريك، كانت الشوارع ملأى بصخب الحياة وتموّج الألوان، بينما سيطر على السيارة جوّ من التوتر جعل جين تتمنّى أن تكون خارجها وسط هؤلاء المارة.

تغيّر طابع الجزيرة بعد أن خلفا وراءهما المدينة. فقد أصبح أكثر غرابة، بعد أن دنت الجبال من مرأى البصر، وظهرت الحدود والنباتات الاستوائية المورقة بكثرة حتى قاربت أن تتعدّى الطريق نفسه. حبست جين أنفاسها أمام هذا الجمال البرّي ففي بعض الأوقات قاربت الأشجار من الالتقاء عبر الطريق فبدا وكأنهما يسيران خلال نفق أخضر عال، بينما كانت الشمس تخترق بين حين وآخر فروع الشجر الكثيفة بوهج أصفر لامع كالماس. أبطأ غافن من سرعة السيارة، فرأت من خلال الأشجار عدداً من الأبنية المنخفضة المستطيلة - سقفها من الحديد المضلّع، وقد طلي باللون الأبيض ليعكس الحرارة. كانت سيارة ماك تقف في ظل شجرة فأوقف غافن سيارته وراءها قائلاً:

«ها قد وصلنا.»

كانت جين تتساءل ماذا يمكن أن يريها هنا في المدرسة؟ بادرها قائلاً وكأنه قرأ أفكارها:

«أريد أولاً أن أريك شيئاً.»

سار مبتعداً تاركاً جين تتبعه وسط شجيرات كثيفة تعلوها ورود ناعمة ناصعة البياض ذات رائحة قوية. سارت جين خلفه وقد زمّت شفتيها في تحدّ. فجأة اقتربا من أرض خاليه فوصل الى سمعها صوت خرير المياه الذي أكسب تلك البيوت الصغيرة المتراصة في شكل شبه دائري جواً من السحر. اصطفت بطول الجدران شجيرات أزهار زاهية الألوان ومروج صغيرة رويت بعناية للمحافظة على خضرتها الناضرة بينما طلي كل منزل بلون زاه، وفتحت النوافذ على مصراعيها لادخال أكبر قدر من الهواء.

توقف غافن واستدار ناحيتها متسائلاً دون أن ينم تعبير وجهه عن شيء:

«هل أنت مستعدة؟»

«مستعدة لماذا؟»

رفع حاجبه في سخرية قائلاً:

«هل أنت مستعدة لتعرفي ما أسفرت عنه زيارة المرأة الصينية لغرفة التعذيب!»

ودون أن ينظر وراءه مرة ثانية توجه نحو أقرب باب وطرقه.

خفق قلب جين بقوة عندما فتح الباب. فقد تقدمت مجموعة من الأطفال واثنين أو ثلاثة من الشباب الصينيين نحو غافن وأحاطوا

به بينما رأت وجهاً مألوفا يقف في مدخل الباب وقد تصاعدت جلبة من الأصوات جميعها تحيّي غافن. رفعت المرأة العجوز يدها بحركة تحية وقد علت وجهها ابتسامة عريضة.

تقدمت المرأة الى الأمام ببطء ثم انحنت وصافحته. استدار غافن نحو جين كانت نظرته ملأى بالتحدي. ثم بدأ يتحدث برقة الى المرأة التي أومأت ثم أدارت عيني براقتين نحو جين وقد اتسعت ابتسامتها لتكشف عن أسنانها الذهبية.

لم تكن تتحدث الانكليزية فتولّت حفيدتها ترجمة ردّها على تساؤلات غافن قائلة:

«إن جدتي ترغب في أن تشكر لك اهتمامك. فلولا وجود السيد غرانت في المطار لما استطاعت المجيء إلى هنا.»

بلعت جين ريقها محاولة الابتسام وهي متنبهة تماماً الى نظرة غافن الساخرة المثبتة عليها حين مضت الفتاة تقول:

«نعم. جاءت جدتي وحدها من سايغون ـ وفقدت نقودها وجواز سفرها. كان موظفو المطار على وشك استدعاء البوليس، لكن غرانت طلب منهم العناية بها، وضمن لهم أن يقوم هو بالتحقيق من صدق روايتها عندما يصل الى سارامنكا ثم يعود الى الاتصال بهم تليفونياً، على أن يقوموا في هذه الأثناء بتقديم الطعام لها على نفقته، إذ إنها كانت تشعر بجوع شديد بعد أن أمضت ساعات انتظار طويلة في المطار.

تصاعدت الأصوات من جديد. وبدا غافن وكأنه يرفض دعوتهم له بالدخول، كانت يداه ترتفعان في حركات معبرة عن الاعتذار وهو يتقهقر الى الوراء، تصحبه عاصفة من كلمات الوداع. تأبط غافن

ذراع جين ليعودا أدراجهما وسط الشجيرات الكثيفة.

وفي منتصف الطريق، توقف قائلاً:

«هل أنت مقتنعة الآن بأنني لست كريهاً؟»

استدارت جين نحوه قائلة:

«لقد لهوت بما فيه كفايتك. نعم، ماذا تريد مني، هل تريد أن أركع امامك ألم يكن في وسعك أن تكتفي بأن تقول الحقيقة؟»

قال لها بلطف:

«هل كنت ستصدقينني؟ كنت أريدك أن تري بنفسك حتى تعرفي الحقيقة، وتدركي أن الأشياء ليست بالضرورة كما تبدو.»

«ربما كان عليك أيضاً أن تحاول تذكر ذلك.»

«لقد قلت شيئاً كهذا من قبل. ماذا تعنين؟»

ردّت في غضب قائلة:

«ربما. لكني أريد سماعه منك.»

«إذاً عليك أن تنتظر حتى أكون مستعدة لذلك. جئت لأعمل وأنا واثقة من أن ماك ينتظرني.»

راح غافن يحدق في وجهها. شعرت فجأة بأنها لم تعد تخافه. كان إحساساً غاية في الغرابة، أحسّت وكأنها تعيش تجربة جديدة، مع هذا الرجل المتسلّط وعرفت أنه هو أيضاً أحسّ بالشيء نفسه، ذلك الشيء الذي لا يمكن وصفه.

استدارت جين وواصلت المسير، كانت تعرف أن شيئاً قد تغيّر في تلك اللحظة.

رأت جين المدرسة، كان الأطفال قد وصلوا بالفعل فصحبها

ماك اليهم. بناء المدرسة مماثل للأبنية الأخرى التي رأتها منذ قليل: منخفضة مستطيلة خشبية ذات سقف حديدي مضلّع قابلتها سيدة لطيفة وقد تبعها أطفال يرتدون زياً موحداً. كانت بشرتهم بلون العسل، عيونهم سوداء، وقد بدوا جميعاً ممتلئين سعادة.

بادرت السيدة قائلة قبل أن يكون لدى ماك فرصة لتقديمها:

«اسمي آن موراي، سعدت بلقائك.»

صافحتها جين ضاحكة وهي تقول:

«أسفة إنني لا أعرف شيئاً عن مدارس الحضانة.»

«لكنك ستتعلمين أنا واثقة من ذلك.»

نظرت السيدة موراي الى ما ترتديه جين بنظرة استحسان قائلة وهي تتنهد:

«كنت أود أن يكون في وسعي ارتداء الشورت لكن زوجي يقول إنه ليس مناسباً لسني.»

قال ماك مداعباً:

«إنه يخشى أن يلتف الرجال حولك. إسمحا لي بالرحيل فلدي عملية جراحية في المدينة، سأعود في وقت آخر.»

تلفتت السيدة موراي حولها قائلة:

«تعالي معي يا آنسة نتجول في ارجاء المدرسة»

تضاحك الأطفال في مرح، وركض بعضهم الى الأراجيح بينما وقف البعض الآخر يراقب في صمت. تقدّمت نحو جين طفلة صغيرة وقد وضعت اصبعها بثبات في فمها. ثم أخرجت اصبعها من فمها رافعة ذراعيها الى أعلى نحو جين وهي تقول:

«من فضلك إحمليني.»

انحنت جين ورفعت الطفلة الصغيرة بين ذراعيها فابتسمت السيدة موراي قائلة:

«هذه هي ميلاني ستطلب منك أن تحمليها طوال اليوم، فاذا لم تكوني حازمة معها فان ذراعيك ستتعبان.»

طوّقت ميلاني عنق جين ضاحكة بيد متسخة قليلاً، فعرفت جين ماذا كان يعني ماك عندما طلب منها ارتداء ملابس يسهل غسلها. وقالت الطفلة:

«أنا أحبك. أنت صديقتي.»

في فترة الظهر أحضر رجلان أوعية طعام ضخمة من مقصف العمال، وجلس الأطفال الى الموائد يأكلون. وتناولت آن و جين وجبتهما مع الاطفال.

وبعد ذلك خلد الأطفال الى الراحة وأطلقت آن زفرة ارتياح بعد أن وضعت آخر طفل في سريره ونظرت الى الأسرة الصغيرة المصطفة وقد رقد في كل منها وجه صغير. نظرت الى جين قائلة:

«أمامنا ساعة للراحة، تعالي، لنتناول قهوة مثلجة وندخن سيكارة تحت تلك الشجرة. فنحن في حاجة الى قيلولة قصيرة.

جلست آن و جين تثرثران في تراخ تحت ظل شجرة ملتوية ضخمة كانت أوراقها تصدر حفيفاً وسط نسمة خفيفة. سمعت جين صوت سيارة تتوقف بعيدة وتساءلت إذا كان ماك قد عاد ثم نسيت الأمر عندما بادرتها آن قائلة:

«يجب أن تحضري حفلة الزفاف يوم السبت.»

«هذا كرم منك. أشكرك. هل سيحضر والدي الحفلة؟»

هزت آن كتفيها قائلة :

«لا نعرف بعد. ماك سيخبرنا بذلك. ولكن حتى لو لم يحضر، يجب أن تأتي أنت. غافن يمكن أن يحضرك، أنا واثقة من ذلك.»

«شكراً لك سأحدث ميغان بذلك حين أراها.»

مرّ الوقت بسرعة وبدأ الأطفال يستيقظون بادرتها جين متسائلة:

«هل يعمل آباء الأطفال جميعاً في مصنع التعليب؟»

«نعم، أو في مجمعات تخزين لباب جوز الهند. فنحن لدينا مشروع تصدير لباب جوز الهند وليفه المستخرج من القشرة الخارجية وهو يستخدم في صناعة الحصير وأشياء أخرى. وعندما يتسع المشروع سنعمد إلى تزويد المدرسة بهيئة من المدرسين المتمرسين. فالمدرسة ما زالت في مرحلة تجريبية. ولذلك فغافن لا يملك إلاّ أن يقبل مساعدة عدد منا كلّما أمكننا ذلك ـ ونحن نسعد بأن نخدمه. فهو بذل الكثير من أجل سارامنكا وكل فرد فيها.»

«تقصدين ماك. إنه...»

قاطعتها آن وهي تضحك في دهشة:

«كلا لا أقصد ماك بل غافن. فإن كلّ هذا ملك له وحده.»

لم تستطع جين أن تستوعب ما قالته آن بعدة دقائق حيث وقفت محملقة في ذهول، ثم قالت في بطء:

«لست أفهم. تصوّرت أن هذه المدرسة ملك لماك.»

«نعم، يمكنك أن تقولي ذلك. فهما فكرا في المشروع معاً. ألم يخبرك أحد بذلك؟ إن المصنع ملك لغافن كما كان ملكاً لوالده من قبله وماك

يقدّم له النصح فيما يتعلق بالشؤون الصحية والتأمينات وشروط العمل. تمكنا من رفع مستوى المعيشة في الجزيرة بشكل ملحوظ مما مكّن الأمهات أن يعملن هنا وهنّ واثقات من أن أطفالهن في أمان.»

لم تكن جين تصغي اليها تماماً. فقد عادت الى ذلك الحوار الذي دار في بيت والدها. وعرفت الآن لماذا قاطع غافن ماك في تلك اللحظة. وفيما بعد، عندما كانا في المطار، كان في وسعه أن يقول لها الحقيقة لكنه لم يفعل.

دخلتا الى المدرسة وبدأتا توقظان من بقي نائماً من الأطفال. فقفزت ميلاني واتجهت نحو جين ثم دست يدها الصغيرة في يد جين.

ابتسمت آن قائلة:

«أصبحتما صديقتين.»

«إنها فتاة طيبة.»

«سأدعك تكتشفين ذلك بنفسك.»

جلست جين تلعب مع الأطفال في ملعبهم، ثم تذكرت كلمات آن تلك فتلفتت حولها لتتأكد من أن كل شيء على ما يرام. نهضت مسرعة وقد استدارت صوب المدرسة منادية:

« ميلاني؟ هل هي عندك؟»

ظهرت آن في مدخل الباب قائلة:

«كلا، هل حدث هذا مرة ثانية؟ متى رأيتها لآخر مرة؟»

«منذ دقيقة واحدة، كانت تلعب في حفرة الرمال.»

«جربي هذا الطريق بينما أبحث عنها وراء المدرسة.»

ركضت جين مسرعة نحو الطريق وسط شجيرات متشابكة وقد

غمرها ذعر مفاجىء. اكتسى المكان بالعشب ـ فكان يمكن للفتاة الصغيرة أن تكون في أي اتجاه. دارت حول نفسها ثم هوت وقد أحسّت بالدوار بعد أن تعثرت قدمها في نبات متسلق.

نهضت متجاهلة الألم في كاحلها وركضت وهي تنادي صارخة:

«ميلاني ، ميلاني أين أنت؟»

توقفت فجأة بعدما اقتربت من الساحة الأخرى المؤدية الى المصنع التي كانت تقف فيها سيارة ماك . لكنها لم تر سيارة ماك ، بل كانت سيارة غافن وقربها رأت وجهين مألوفين. استوعبت جين ذلك المنظر في ارتياح مفاجىء، لم تعرف في تلك اللحظة أن منظر هذين الوجهين سينطبع في ذاكرتها الى الأبد.

كان غافن منحنياً ليحمل ميلاني. رأت ذلك الرجل الطويل القامة وهو يؤرجح الطفلة الصغيرة الممتلئة، كانت تسمع صرخاتها الضاحكة كما سمعته يقول:

«أين أنت ذاهبة يا ميلاني ؟»

رأى جين فجأة، فتوقف. تقدمت نحوها وهي تجفل من الألم كلّما وضعت قدمها اليسرى على الأرض. تقلص وجه غافن عندما خفض نظره الى قدمها فبادرها متسائلاً:

«هل كنت تركضين؟»

«نعم، أشكرك لأنك أوقفت ميلاني. دعني أعيدها الى المدرسة.»

«من الأفضل أن أفعل أنا ذلك. فأنت لا تبدين على ما يرام. هل تؤلمك قدمك؟»

«كلا.»

كانت تكذب، واستدارت عائدة. كل خطوة كانت عذاباً لكنها كانت عازمة على ألاّ تجعله يرى ذلك.

ظهرت آن ورأت جين فحملقت فيها قائلة:

«ماذا جرى لك؟».

قال غافن :

«أعتقد أنها في حاجة الى بعض الاسعافات الأولية.»

انزل ميلاني من بين ذراعيه قائلاً:

«اذهبي أيتها الفتاة الشقية، لا تهربي مرة ثانية والا ضربتك.»

أخذت ميلاني تقفز بعيداً وهي تقهقه، ثم ركضت لتنضمّ الى رفاقها.

تقدمت آن نحو جين آخذة بذراعها وهي تقول:

«أجلسي في الداخل. سأذهب لأحضر ماء مثلجاً. لونك شاحب.»

امتثلت جين في صمت. فلم يكن أمامها خيار برغم احساسها بوجود غافن، فهي تعرف انه ليس في وسعها أن تظلّ واقفة كيلا تتعرض مرة اخرى للغثيان.

سمعت آن تقول شيئاً لغافن بصوت مرتفع، لكنها لم تعي الكلمات، ثم وجدت نفسها جالسة في أحد مقاعد الأطفال الصغيرة.

قالت آن :

«تورم كاحلك كالبالون، يجب أن نحضر ماك ليرى قدميك. ألا تظن ذلك يا غافن؟»

ركع أمام جين ثم رفع رأسه مؤيداً كلام آن:

«نعم. لكن أمامنا بعض الوقت قبل أن يحضر. سأضمد الجرح أولاً،

أين صندوق الاسعافات الأولية يا آن.»

اختفت آن في حجرة مخزن صغيرة فقال غافن برقة:

«لماذا أنكرت أن كاحلك تؤلمك عندما سألتك؟»

«أنا لا أحب استثارة شفقة أحد.»

ضغط على شفتيه قائلاً:

«لم أقل أنك كذلك ولكن كم أتمنى لو لم تكوني...»

لم تعرف قط ماذا كان ينوي أن يقول اذ في تلك اللحظة دخلت آن حاملة الاسعافات الأولية.

كانت يدا غافن رشيقتين سريعتين وهو يضمّد كاحل جين بمهارة. اختلطت مشاعر جين بين احساس بالراحة بعدما خفف الضماد البارد آلامها وبين الخوف من ذلك الاحساس بالاضطراب الذي أحدثته لمسة يده.

قالت بعد أن انتهى من تضميد قدمها:

«شكراً.»

«هذا من دواعي سروري. من الأفضل أن أصحبك إلى المنزل، أليس كذلك؟»

«كلا شكراً. أفضل أن أبقى مع الأطفال اقصّ عليهم حكاية.»

«كما تشائين يا جين. لم تبق سوى ساعة واحدة فقط على موعد انصراف الأطفال.»

رفعت آن يدها الى فمها قائلة:

«يا إلهي، يجب أن أعطي الأطفال الحليب.»

«سأتولى الأمر عنك.»

عاد غافن و آن بأبريق من القهوة المثلجة ووعاء كبير من الحليب، وبعد أن قدما الحليب للأطفال الذين اصطفوا استجابة لتعليمات غافن، جلست جين و آن وتناولتا مشروبهما المثلج. أما غافن فقد ظل في الخارج.

همست آن قائلة:

«إنه رائع مع الأطفال، أتعرفين ذلك. إنهم يفعلون أي شيء من أجله.»

لم يكن في وسع جين إلاّ أن توافق على ذلك وهي ترقب الأطفال يناولون غافن في هدوء اكوابهم الفارغة:

«انهم يطيعونه، لانه يرعبهم»

ندمت على ما تفوهت به في الحال. وضحكت آن قائلة:

«لا أعتقد ذلك. فهو عندما يجيء الى هنا يختلف تماماً عما هو عليه في عمله.هنا يصبح على سجيته أعتقد أنه واحد من هؤلاء الرجال الذين لا يخشون أن يظهروا بعض الرقة من حين الى آخر. فمعظم الرجال، يعتقدون أن هذا يتنافى مع رجولتهم، أما غافن فلا يهتم برأي الناس فيه.»

رشفت جين قهوتها ببطء لم تكن تريد أن تعرف شيئاً عن وجهه الآخر. لكنّها برغم ذلك وجدت نفسها تراقبه وقد انحنى يحدث أحد الأطفال، منكب على ما يقوله الآخر دون أثر لتلك العجرفة المعتادة في وجهه.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تساءلت فيها جين عما إذا كانت سارة تأتي الى المدرسة. لم تجد الوقت مناسباً لتسأل، فقد كان غافن آتياً يحمل مجموعة من الاكواب الفارغة الى حوض الغسيل.

بادر أن قائلاً:

«سأقيم سوراً حول تلك المساحة من الأرض، حتى لا يتكرر حادث ميلاني.»

«انها فكرة جيدة وستسهل مهمتنا.»

«سأعمل على تنفيذها غداً.»

نظر الى ساعته وقال:

«أنا ذاهب الآن لأرتب بعض الأمور المتعلّقة بهذا الموضوع.»

قالت أن وهي تهزّ رأسها:

«هذا هو غافن ، لا يكاد يقول شيئاً إلاّ ويفعله. من المؤسف أنني لن أكون هنا غداً لأراقبه وهو ينفذه.»

عاد غافن بعد قليل ومعه اثنان من سكان الجزيرة يحملان مجارف ومطارق. رأته جين و أن يشير الى عدد من المواقع ويخطط بالعصا في الأرض الرملية وسط انبهار الأطفال. ثم تقدم نحوهما قائلاً:

«اتصلت تليفونياً بالمدينة من مكتب المصنع. ستحضر سيارة نقل بعد نصف ساعة وفيها كل ما نحتاجه. وفي هذه الأثناء سنبدأ حفر الاساس. فاذا سمحتما، أبعدا الأطفال عن طريقنا.»

وبحركة رشيقة، خلع قميصه وألقى بها على أحد المقاعد. كانت بنيته قوية فكتفاه كبيرتان بعضلات قوية، وصدره عريض مغطى بشعر أسود كثيف. برقت القلادة الفضية المدلاّة من عنقه وهو يتحرّك متجهاً نحو الخارج. غضّت جين بصرها وثبتته بسرعة بين يديها. ثم شعرت بارتياح عندما قالت أن:

«يا له من رجل قوي البنية. لا غرابة في أن كل نساء الجزيرة يتمنين

صداقته.»

قالت جين وهي تحاول الضحك:

«حقاً؟ لكنه مرتبط أليس كذلك؟»

«تقصدين سارة؟ أعتقد أنها تأتي في المقدمة. انها تسعى الى ذلك بلا شك. لكن صديقنا غافن طائر مراوغ. ألم تلتقي كاي بعد؟»

«كلا. هل كانت في حفلة سارة الأسبوع الماضي؟

«كلا! فهما لا تتبادلان الحديث لأسباب واضحة بالطبع كاي ستحضر حفلة زفاف شيرلي ويمكنك أن تلتقيها هناك.»

نظرت جين الى حيث بدأ غافن عملية الحفر. فقد كان ذلك أمراً مسلياً بالفعل، كان يعمل بحركات قليلة سريعة تكشف عن تمرسه.

تساءلت جين قائلة:

«لماذا يفعل هذا بنفسه أتصوّر أنه يستمتع بمثل هذه التمرينات، فقد كان رياضياً قديماً قبل أن يموت والده ويتولى هو كل مسؤولياته. أعتقد أنه يريد أن يحتفظ بمظهره كما أن العمال يتفانون في عملهم متى رأوا رئيسهم يشاركهم فيه.»

«قال لي ماك ان غافن يعرف كيف يقاتل، ولكن لم يقل لي كيف كان ذلك؟»

«تلك القصة انتشرت في الجزيرة كلها في ذلك الحين. بعدما تولىّ تبعة المصانع اثر وفاة والده مباشرة. كانت هناك بعض المشاكل بين العمال ثم تطورّت الى عراك. ووصل ماك و غافن عندما كانت المعركة في أوجها. ألقى غافن نظرة خاطفة. ثم وقع اختياره على زعيمي

المجموعتين المتصارعتين، خاض في الكتل المتصارعة وسط اللكمات المتطايرة وفي لحظات أفقدها الوعي، فتفرّق الجمع تلقائياً.»

كانت عينا جين مثبتتين الآن على غافن الذي لم يكن يدري طبعاً أن الحديث يتناوله. أحسّت جين، بأنها بدأت تعجب بالفعل بشخصية غافن كل يوم تسمع شيئاً جديداً عنه يجعلها تكتشف مزاياه ومدى ما يتمتع به من نفوذ في الجزيرة. نهضت جين، وقد أحسّت بالقلق فجأة، خطت ببطء وحرص صوب الباب. توقفت خجلة على وشك أن تعود أدراجها بعد أن أحسّت بعيني غافن مثبتتين عليها. في تلك اللحظة سمعت رنين الجرس يدعو الامهات إلى تسلم اولادهن.

كان غافن يغرز الجاروف في الأرض الصلبة ويتقدّم نحوها قائلاً:

«انتهى يوم عملك، هل أنت سعيدة؟»

نظرت اليه جين بحدّة قائلة:

«لقد استمتعت به.»

«هل ستأتين مرة ثانية؟»

«نعم، لماذا لم تقل لي أن هذا المشروع ملكك؟»

«هل عرفت؟»

«نعم.»

حاولت الوقوف، فأمتدت يده فجأة تمسك بذراعها، أحست بالاضطراب فابتعدت قليلاً وهي ما زالت تنظر اليه.

«تصوّرت أنك لن تقدمي مساعدتك إذا عرفت ذلك.»

ثم أضاف في رقة:

«هل كنت ستقدمين مساعدتك؟»

«لا أعرف.»

تمنّت لو لم تكن أجابت بهذه السرعة.

«ألم أقل لك إذاً...»

وفجأة توقف عن الكلام ثم قال:

«سمعت شيئاً. إما أنه الاتوبيس أو أن الأشياء التي طلبتها للسور وصلت، اسمحي لي.»

سار بخطوات واسعة نحو الطريق ثم جاءت آن وقالت:

«الى أين ذهب؟»

«ليرى من الذي وصل»

ظهر ماك وسط حشد من النساء، بثياب زاهية الألوان يثرثرن ويلوحن لأطفالهن. ثم ذهب الجميع ليسود الصمت.

تلفتت آن حولها قائلة:

«انقضى يوم آخر يا ماك . أدّت جين دورها جيداً.»

«كنت أعرف أنها ستفعل ذلك.»

نظر ماك إلى قدم جين وقال:

«ماذا كنت تفعلين يا سيدتي الصغيرة؟»

«كنت أطارد ميلاني ثم زلّت قدمي.»

«يبدو أنها صمدت جيداً. سأراها عندما نصل الى المنزل. هل أنت مستعدة للذهاب يا جين ؟»

ابتعدت جين و ماك عن المدرسة رويداً. لم يكن هناك أثر

لغافن . وعندما اقتربا من سيارة ماك ، كان يقف يتحدث مع سائق عربة نقل وعندما رآها تقدم نحوها. نظر الى جين قائلاً في هدوء:

«شكراً على مجيئك، أنا أقدّر مساعدتك.»

كانت كلماته هذه المرة لها وحدها، وكأن ماك غير موجود. لمحت جين شيئاً في عينيه. شعرت بالدفء والاطمئنان. تبادلوا كلمات الوداع ثم استقلت جين سيارة ماك. أمسك غافن بباب السيارة كي تجلس ثم أخذ يتحدث مع ماك في الجانب الآخر من السيارة. كانت تسمع صوتها لكنها لم تفهم شيئاً. سيطرت على مخيلتها النظرة الحانية في عيني غافن. تشبثت جين بحقيبة يدها وأحسّت برغبة في البكاء من دون أن تعرف لماذا.

٨ ـ التحول

مر اليومان التاليان بطيئين. فقدت جين شهيتها للأكل فأرجعت ذلك الى حرارة الجو والألم الذي تحسّه في كاحلها.

اقترب موعد حفلة الزفاف. وفي أمسية يوم الأربعاء، كانت تجلس مع أبيها في طرف الحديقة، على مرأى من البحر بعدما صبّ نسيم منعش رطب الجو. كانا ينتظران ميغان و كولن على العشاء. قررت جين أن تكون بالغة الرقة مع كولن. فهي تجده لطيفاً كما أنها تعرف أنه متعلق بها. هذا الشعور كان كافياً لاسعادها لو أن عاطفتها لم تتبدل. أما الآن، ولسبب لا تعرفه تماماً فهي تتمنى لو لم يكن متعلقاً بها. لم يكن في وسعها أن تفهم مشاعرها أو تحللها. تساءلت لماذا لم يأت غافن لرؤية والدها منذ الأحد الماضي. هي لا تبالي بالأمر، لكن كان عليه أن يحضر ليرى ماذا جرى لكاحلها. غير أنه لم يحضر وقد ظلّ هذا الخاطر عالقاً بذهنها. بادرت أباها قائلة:

«هل سنذهب الى حفلة زفاف شيرلي يا أبي؟»

«نعم، الآن وأنت معي، أعتقد أني سأذهب. سنسأل ميغان اذا كان

ممكناً أن تذهب معها، أعتقد أنها وصلت مع كولن.

أقبلت ميغان ومعها كولن وتبادل الجميع تحية ودية. جلس كولن القرفصاء قرب مقعد جين وبادرها قائلاً:

«كيف حال كاحلك. هل تحسن الآن؟»

«تحسنت كثيراً. كنا نتحدث الآن عن حفلة زفاف شيرلي.»

«هل ستذهبان؟»

تدخل والدها قائلاً:

«نحن نأمل أن نذهب، كما نأمل أيضاً أن يتطوع أصدقاء طيبون بنقلنا الى هناك.»

ردت ميغان بسرور:

«سنكون سعيدين بذلك. ماذا سترتدين يا جين؟»

«لم أفكر بعد.»

قاطعها أبوها:

«هذه ليست مشكلة، يمكنك أن تشتري ثوباً.»

بادرته جين قائلة:

«لكني لا أستطيع.»

قاطعتها ميغان :

«أعرف ذلك، لنعدّ لك ثوباً بالشرائط الحريرية المعروفة في سارامنكا.»

احتجت جين قائلة:

«لا يمكنك ذلك، فهذا يستغرق وقتاً طويلاً.»

«اليوم الأربعاء، سنشتري غداً كل ما يلزمنا وسيكون الثوب جاهزاً يوم

الجمعة.»

نظر اليها والد جين بود قائلاً:

«إن حياكة ميغان معروفة للجميع، أنا أضمن ذلك.»

«هذا كرم منك يا ميغان لكن هل أنت واثقة؟»

«كل الثقة. صباح غد سأصحبك لنشتري كل ما يلزمنا من محل غافن.»

«من يتحدث عني؟»

التفت الجميع ليجدوا غافن ومعه كلبه.

فجأة شعرت جين بأنها تريد الفرار الى مكان ما، الى أي مكان بعيداً عنه.

بدأت ميغان تعيد سرد ما كانوا يتحدثون عنه. وأحست جين بانسحاب كولن الصامت من جوارها بينما أرقى كارلو باسترخاء مكانه دافعاً أنفهالرطب في يد جين. ربتت على رأسه بينما كانت تصغي الى غافن:

«جئت أطلب خدمة من جين . ولكني لا أستطيع أن اطلب ذلك الآن.»

«ماذا تريد؟»

جاء صوتها عادياً، أو هكذا بدا، في حين كانت ترتعد من الداخل.

«إن آن تعمل بمفردها غداً في المدرسة وهي تسأل ما اذا كنت قادرة على مساعدتها.»

إذاً هذا هو سبب مجيئه كان يجب أن تعرف نظرت الى ميغان في حيرة فبادرتها الأخرى قائلة وهي تضحك:

«الأمر متروك لك يا عزيزتي. يمكنني أن أشتري أنا كل ما نحتاج اليه إذا رغبت في ذلك.»

تدخل غافن قائلاً:

«استطيع ان اصحب جين الى المحل في الثامنة صباحاً لتختار ما تريده. هذا إذا كنت ستذهبين الى المدرسة يا جين.»

«أنا مستعدة للمساعدة.»

فكرت جين وهي في فراشها بأن غافن يصل دائماً الى أغراضه. حدث الأمر بشكل طبيعي لكنها الآن أدركت كيف أنه يحقق أهدافه بسهولة. فالجميع يوافقون بحماسة على مخططاته. أخذت تتقلب في فراشها بقلق وقد سيطرت عليها فكرة واحدة وهي أنه سيصحبها الى محله ثم الى المدرسة. وقد وافقت على ذلك صاغرة. كيف حدث هذا وهي التي قررت أن تتجنبه.

وقبل أن تستلم للنوم كان وجه غافن هو آخر رؤية تفرض نفسها عليها. وجه غافن بالصورة التي بدا عليها عندما كان منحنياً على وشك التقاط ميلاني بين ذراعيه. فقد بدا مختلفاً تماماً.

في الصباح، عندما كانت ترتدي ثيابها وتمشط شعرها أدركت أن مقامها في سارامنكا لم يدم أكثر من أسبوع. لقد بدا ذلك مستحيلاً. فهي تحس أنها عاشت هنا منذ زمن بعيد وكأن الجزيرة باتت جزءاً لا يتجزأ منها. قريباً سيكون عليها أن تختار، وهي ليست واثقة بعد ماذا سيكون اختيارها. فهي تود البقاء مع والدها، لكنها لا تزال مترددة، فهناك احساس غريزي دفين بحب البقاء يؤكد لها ضرورة الرحيل، قبل أن يفوت الأوان، لكن أوان ماذا؟ انها لا تدري ولا يمكنها

أن تتكهّن به؟

استيقظ والدها مبكراً وقد بدا وجهه مسترخياً مليئاً بحيوية لم تشهدها من قبل. حيّاها ثم بادرها قائلاً:

«أعتقد أني سأخرج لأتريض قليلاً اليوم. فأنا أشعر بتحسن ملموس.»

«هل أذهب للتريض معك؟»

«كلا، فهم يحتاجون اليك في المدرسة ـ أنا سعيد لأنك ستذهبين.»

لم تعرف جين ماذا تقول. كلماته الصادقة الهادئة تجعلها عاجزة عن الرد. حبها يتعاظم يوماً بعد يوم لوالدها، إنها تشعر بالندم على السنين التي قضتها بعيدة عنه. ربما كان القدر هو الذي أخر اجتماع الشمل. ربما كان الآن هو الوقت الأفضل لذلك. قالت:

«أرى أنك تبدو أحسن حالاً الآن. إنني سعيدة بذلك.»

«هذا بفضل تأثيرك يا جين. فأنا الآن لدي من أعيش من أجله.لدي من أقول انه ملكي. وأنت كما تمنيت أن تكوني تماماً.»

«شكراً.»

لم تزد على ذلك بعد أن خنقتها مشاعرها ثم قالت:

«عليّ أن أستعد. فغافن آتٍ بعد قليل.»

ذهبت الى غرفتها محاولة بلا جدوى لجم دموعها. لا تريد ان يراها غافن على تلك الصورة. وبالفعل عندما سمعت صراخاً على الباب كانت قد تمكنت من تمالك نفسها.

كانا يسيران الآن صوب بورت باتريك. نظر اليها نظرة فضولية وقال:

«هل تشعرين بتحسن في قدمك؟»

«نعم، شكراً.»

تبدد الآن ذلك الشعور الغريب الذي أحسّته نحوه يوم الأثنين الماضي، وعاودها التوتر. يبدو أنه أحسّ بذلك أيضاً، فبدأ الحديث عن المدرسة بنبرة موضوعية وكأنه يتحدث مع شخص غريب. كان يبدو جذاباً وقد ارتدى قميصاً من الحرير عقده بشرائط حريرية مطرزة بدلاً من الأزرار. تذكرت جين كلمات آن. إنّ نصف فتيات الجزيرة يسعين وراءه. أحسّت بالسعادة لأنها لم تكن واحدة منهن.

خطر لها خاطر مفاجيء. ترى لماذا طلب منها الذهاب الى المدرسة، ربما هو يأمل في أن... تصلّبت جين في مقعدها بعد أن داهمتها فكرة مخيفة. فهي لا تنخدع بالرجال، خاصة المجربون من أمثال غافن. كانت الخالة دوروثي تشعر بمتعة دائمة في تحذيرها من أن جميعهم سواسية، يسعون وراء ما يريدون أن يحصلوا عليه. وغافن لا يختلف عن باقي الرجال بل قد يكون أسوأ منهم. فقد اعتاد طوال حياته أن يأخذ ما يريد. وهو يعلم أنه جذاب. وهو يكرهني ورغم ذلك ينظر إليّ أحياناً بطريقة ما، كما أن لمسة يده على ذراعي، اندفعت إلى ذاكرتها الآن كل الأشياء الصغيرة التي لم تكن تعني لها شيئاً.

«هل هناك ما يزعجك؟»

التفتت نحوه قائلة:

«لا... لا.»

لم تقو عيناها على مواجهة عينيه خوفاً من أن يقرأ أفكارها.

كم كانت حمقاء. تململت في مقعدها وتمنت لو لم تحضر معه. كان عليها أن ترفض.

«صرت هادئة جداً.»

«كنت أفكر.»

هدأت الآن خفقات قلبها السريعة. يجب أن تتمالك نفسها وإلاّ فماذا يبقى لها؟

بعد لحظات وصلا الى المحل. كان كل شيء هادئاً وكأن المحل مهجور. تمكنت أخيراً من أن تتساءل بنبرة عادية وهما في المصعد:

«في أية ساعة يفتح المحل أبوابه.»

«يفتح أبوابه اليوم الساعة التاسعة والنصف. في وسعك أن تلقي نظرة حولك.»

أحسّت بالراحة عندما توقف المصعد، وقادها عبر قسم ثياب السيدات الذي كان يسوده هدوء شامل وقد تمت تغطية الأزياء الخشبية المنتصبة كأشباح سجينة تنتظر الحرية.

اخترق غافن الصمت قائلاً:

«سأحضر أولاً الشرائط المطرزة الحريرية.»

أخذت جين تتجوّل وسط الرفوف المليئة بالبضائع ثم قالت:

«من الصعب اختيار المطلوب وسط هذه المجموعة الكبيرة.»

«دعيني أساعدك. فأنا أعرف تماماً ما تريدين.»

قدّم لها بعض الشرائط المطرزة الحريرية قائلاً:

«والآن ماذا تريدين تحتها؟ اللون الوردي أم الأزرق أم الأصفر؟»

«أرني هذا اللون الأصفر. هل يمكنني أن أراه جنباً الى جنب مع الشرائط. كانت الشرائط رقيقة شفافة تكاد تكون عاجية اللون وقد اكتمل منظرها عندما وضع تحتها الحرير الأصفر اللامع. تنفست جين

الصعداء وقالت:

«نعم أعتقد أن هذا هو ما أريد.»

«جربيه عليك أمام المرآة.»

كانت جين تراقبه وهو يلتقط ثنايا القماش الحريري والأشرطة. جذب القماش الحريري قائلاً:

«أمسكي هذا وضعيه على جسمك.»

كانت جين تشعر بأحساس غريب وقد شعرت بأنها تكاد تترنح. امتثلت لكلماته دون أن تنبس ببنت شفة. أحسّت وكأن طوقاً محكماً يشدد عليها الخناق. انحنى والتقط الشرائط الرقيقة:

«احترسي يجب ألاّ...»

«أنا أعرف ماذا أفعل.»

جاء صوته هادئاً. كانت خفقات قلب جين عالية. كانت تشعر بقلبها وهو يخفق مرتطماً بضلوعها عندما استقام غافن ورفع الشرائط المطرزة بعناية فائقة ووضعها عليها. كانت يداه الآن تمسّان عنقها وخصوصاً وهو يحاول أن يريح الشرائط الحريرية حول جسدها. كان هناك قدر من الحذر في لمسته وبرغم ذلك أحسّت وكأنها في حاجة الى الفرار. أخذت تتحرك في قلق فبادرها قائلاً:

«اهدئي. لماذا كل هذا التوتر؟»

رأت صورتها المنعكسة في المرآة، كان غافن واقفاً وراءها وقد وضع يديه على كتفيها بينما تدلّى القماش الحريري والشرائط فوق جسدها في رشاقة وجمال. اكتشفت أنها لم تكن تنظر الى صورتها في المرآة. بل الى صورته هو. كان قريباً منها الى حد أنها أحسّت بحرارته

وتنشقت العطر الخفيف الخاص بالرجال المنبعث من كريم ما بعد الحلاقة. فتقلص حلقها حتى جاء صوتها أجش وهي تقول:

«هذا رائع الجمال. أعتقد أنني...»

«نعم إنه رائع الجمال.»

كان هناك شيء في صوته جعلها ترتعش وتمنّت أن يبتعد عنها. استدارت نصف استدارة فتراجع للخلف وانزلقت الشرائط قليلاً. أمسك بها قائلاً:

«سأحجزها لك وأسلمها لميغان.»

«شكراً.»

لم تقو جين على النظر اليه. كانت تشعر وكأن رأسها سينفجر من التوتر الذي عاد يسيطر على المكان.

«هل أنت مستعدة للذهاب؟»

«نعم.»

كان هناك قدر من الغرابة في سلوكه أثار قلقها كان يبدو وكأنه غاضب. ماذا فعلت؟

في طريقها الى المدرسة أحسّت جين بألم في رأسها. لم يكن هناك ما تستطيع عمله، يبدو أن غافن سارح في عالمه الخاص، كان يقود السيارة بسرعة، ولم ينظر اليها ولو نظرة عابرة. قبضت بأصابعها على حقيبتها في تعاسة، كان يجب ألاّ توافق أن تحضر معه. رفعت يدها الى جبهتها المشتعلة محاولة وقف ذلك الألم النابض. نظر اليها وقال بلا مبالاة:

«ماذا هناك؟»

«عندي صداع قاتل، لكن لا تدع الأمر يشغلك.»

«هناك أقراص مسكنةفي المدرسة ذكريني أن أطلبها لك.»

«أنزلني أمام المدرسة. وأنا اطلبها.»

«كنت أود أن أدخل معك، لكن لديّ كثيراً من العمل اليوم. سآمر بالطبع لآخذك في الساعة الرابعة.»

«ماك يمكنه أن يمر علي.»

«كلا، فلديه حالة ولادة في وسط المدينة.»

زمّت جين شفتيها. إنه يبدو وكأنه نادم على إحضارها:

«آسفة لأنني لا أعرف أن أقود السيارة انك تضطر لتغيير برامجك بسببي.»

«أنا سعيد بمساعدتك لنا. وأؤكد لك أن نقلك بالسيارة لا يمثل أية مشكلة بالنسبة إليِ.»

«أحقاً؟»

أشاحت بوجهها بعيداً ونظرت الى المروج الخضراء. كانت تحسّ بوخزة ألم في صدرها. دفعت باب السيارة قبل أن يتوقف تماماً أمام المدرسة ثم هبطت وقالت دون أن تنظر وراءها:

«الى اللقاء.»

سمعت صوت المحرك وقد انبعثت فيه الحياة من جديد كما سمعت صوت نفير السيارة، لكنها لم تقو على النظر الى الوراء. تلاشى الصوت متباعداً فتوقفت جين لتلتقط أنفاسها. لم تكن تعرف لماذا ينتابها هذا الشعور الآن، لكن لسبب ما كانت تحس برغبة في البكاء. أخذت نفساً عميقاً وعاودت السير من جديد لتسمع أصوات الأطفال. هنا

العودة الى الطبيعة هنا يمكن أن تجد نفسها على سجيتها. فهي متأكدة من شيء واحد. انها لا تستطيع البقاء مع غانن.

مر الوقت سريعاً وجلست آن وجين أثناء فترة الراحة تتحدثان عن حفلة الزفاف. قالت آن أن شيرلي ستتزوج مواطناً استرالياً وستعيش في بيرث، وقالت:

«أنا واثقة من أنكما ستنسجمان معاً يا جين. للأسف أنها سترحل يوم السبت. ليتك حضرت قبل الآن.»

روت جين أسباب مجيئها متأخرة بينما جلست آن تصغي في صمت وقد علا وجهها تعبير غاضب ثم صاحت:

«يا للهول! انه لأمر رائع أن تكتشفي وجود والدك بهذه الطريقة. أن أباك أصبح شخصاً مختلفاً منذ مجيئك.»

مرة أخرى وجدت جين نفسها تفكر في أبيها. أدركت مع كل يوم يمر أنها تنتمي اليه. أما بالنسبة الى الخالة دورثي فهي ستبحث عن وسيلة لتعوضها ما بذلت حتى لو كان ذلك يعني البحث عن عمل، فهذا الأمر يجب أن تتحمله وحدها دون مساعدة من أبيها. حينئذ فقط تتخلص من ذلك الشعور بالذنب الذي ينتابها من حين الى آخر لتركها خالتها وحيدة. سألت آن عن امكان العثور على فرصة للعمل في الجزيرة وشرحت لها الاسباب واصرارها على عدم اللجؤ الى مساعدة والدها فبادرتها آن قائلة وهي تربت على ذراعها:

«أنا أحترم حبك للاعتماد على النفس، ولكن ألم يكن في نيتك الالتحاق بكلية المعلمات.»

«نعم، لكن تخرجي سيستغرق ثلاث سنوات. أنا أرغب في العمل في

أحد المكاتب أو في أي مكان.»

«في وسعك أن تعملي هنا في المدرسة. فلماذا لا تسألين غافن اذا كان ذلك ممكناً؟»

«لا أعلم، سأفكر في الأمر.»

قرب يوم الزفاف. نهضت جين مبكرة وذهبت الى منزل ميغان لوضع اللمسات الأخيرة لثوبها.

منزل ميغان يشبه كثيراً منزل جون، كان فسيحاً وأبيض، وأثاثه هادىء وقد تناثرت السجاجيد على أرضيته والأزهار في كل غرفه، كل ما في المنزل يدل على ان ساكنته امرأة. قادتها ميغان الى غرفة الحياكة فشهقت جين لرؤية الثوب ثم صاحت قائلة:

«انه رائع يا ميغان!»

«تعالي، جربيه، وبعدئذ سأريك ما لدي من قبعات.»

«كيف يمكنني أن أردّ لك هذا الجميل؟»

إعتبريني فقط أمك الروحية!»

تضاحكت الاثنتان ثم بدأتا التجربة الأخيرة للثوب.

لم تكن جين قد رأت كنيسة الجزيرة، لكنها تخيلتها ذات طابع انكليزي بحت. لذلك كانت مفاجأة لها عندما رأت ذلك المبنى الأبيض البسيط وسقفه القرميدي الأخضر يلمع تحت أشعة الشمس. وينبعث منه رنين الأجراس القوي.

غمر جين احساس بالخجل لحظة وصولها هي ووالدها وميغان وكولن. فشتان بين أن تنظر الى نفسك في المرآة وتشعر بأنك في مظهر لائق وبين مواجهة عشرات من الأشخاص الغرباء، جميعهم يتسمّون

بالأناقة والثقة بالنفس. أحسّت فجأة وكأن ادراكها متيقظ لكل شيء، وكأن حواسها قد شحذت بلا استيعاب كل ما يدور حولها. اخذت تتحدّث وتبتسم بخجل لأصدقاء أسرة موراي. ثم انسحبت هي وميغان الى ركن هادىء، وسألتها جين بفضول:

«من تكون الفتاة هناك؟»

أشارت جين الى فتاة ذات شعر داكن رائعة الجمال.

«هذه هي كاي والاس. إنها على علاقة متينة مع غافن.

إذاً هذه هي الفتاة التي تحدثت عنها آن! أحسّت جين بألم حاد ولكنها لم تدرك سببه.

تفرق الحشد اذ بدأ الجميع يدخلون الكنيسة. خفتت الثرثرة لينبعث صوت الأرغن الرخيم. لم تكن جين قد رأت غافن بعد. بدأت تنظر حولها. كانت الجدران ذات لون أصفر شاحب والسقف ذا عوارض خشبية داكنة، في المقدمة جلس رجلان، أحدهما كان شخصاً غريباً، أما الثاني فكان ظهره مألوفاً بشكل محيّر.

حدّثت جين نفسها قائلة، بالقطع كان يجب أن أعرف ـ غافن هو شاهد العريس. استدار قليلاً ليتحدّث الى زميله وقد تباين بحدّة الشكل الجانبي لقسمات وجهه مع الحائط الأصفر الشاحب. كان وسيماً للغاية فأحسّت جين وكأن قلبها يترنح فأشاحت ببصرها بعيداً خشية أن يراها أحد تحملق فيه خاصة كولن الذي كان يجلس جوارها.

في اللحظة التالية بدأ الأرغن يعزف لحن مجيء العروس المعروف. تحولت الأنظار صوب العروس. إن هناك شيئاً مثيراً للعواطف في طقوس الزواج تلك. حدّثت جين نفسها لكنها وجدت عينيها

أحد المكاتب أو في أي مكان.»

«في وسعك أن تعملي هنا في المدرسة. فلماذا لا تسألين غافن اذا كان ذلك ممكناً؟»

«لا أعلم، سأفكر في الأمر.»

قرب يوم الزفاف. نهضت جين مبكرة وذهبت الى منزل ميغان لوضع اللمسات الأخيرة لثوبها.

منزل ميغان يشبه كثيراً منزل جون، كان فسيحاً وأبيض، وأثاثه هادئ، وقد تناثرت السجاجيد على أرضيته والأزهار في كل غرفه. كل ما في المنزل يدل على ان ساكنته امرأة. قادتها ميغان الى غرفة الحياكة فشهقت جين لرؤية الثوب ثم صاحت قائلة:

«انه رائع يا ميغان!»

«تعالي، جربيه، وبعدئذ سأريك ما لدي من قبعات.»

«كيف يمكنني أن أردّ لك هذا الجميل؟»

إعتبريني فقط أمك الروحية!»

تضاحكت الاثنتان ثم بدأتا التجربة الأخيرة للثوب.

لم تكن جين قد رأت كنيسة الجزيرة، لكنها تخيلتها ذات طابع انكليزي بحت. لذلك كانت مفاجأة لها عندما رأت ذلك المبنى الأبيض البسيط وسقفه القرميدي الأخضر يلمع تحت أشعة الشمس. وينبعث منه رنين الأجراس القوي.

غمر جين احساس بالخجل لحظة وصولها هي ووالدها وميغان وكولن. فشتان بين أن تنظر الى نفسك في المراة وتشعر بأنك في مظهر لائق وبين مواجهة عشرات من الأشخاص الغرباء، جميعهم يتسّمون

بالأناقة والثقة بالنفس. أحسّت فجأة وكأن ادراكها متيقظ لكل شيء، وكأن حواسها قد شحذت بلا استيعاب كل ما يدور حولها. اخذت تتحدّث وتبتسم بخجل لأصدقاء أسرة موراي. ثم انسحبت هي وميغان الى ركن هادئ، وسألتها جين بفضول:

«من تكون الفتاة هناك؟»

أشارت جين الى فتاة ذات شعر داكن رائعة الجمال.

«هذه هي كاي والاس. إنها على علاقة متينة مع غافن.

إذاً هذه هي الفتاة التي تحدّثت عنها أن ! أحسّت جين بألم حاد ولكنها لم تدرك سببه.

تفرق الحشد اذ بدأ الجميع يدخلون الكنيسة. خفتت الثرثرة لينبعث صوت الأرغن الرخيم. لم تكن جين قد رأت غافن بعد. بدأت تنظر حولها، كانت الجدران ذات لون أصفر شاحب والسقف ذا عوارض خشبية داكنة، في المقدمة جلس رجلان، أحدهما كان شخصاً غريباً، أما الثاني فكان ظهره مألوفاً بشكل محيّر.

حدّثت جين نفسها قائلة، بالقطع كان يجب أن أعرف ـ غافن هو شاهد العريس. استدار قليلاً ليتحدّث الى زميله وقد تباين بحدّة الشكل الجانبي لقسمات وجهه مع الحائط الأصفر الشاحب. كان وسيماً للغاية فأحسّت جين وكأن قلبها يترنح فأشاحت ببصرها بعيداً خشية أن يراها أحد تحملق فيه خاصة كولن الذي كان يجلس جوارها.

في اللحظة التالية بدأ الأرغن بعزف لحن مجيء العروس المعروف. تحولت الأنظار صوب العروس. إن هناك شيئاً مثيراً للعواطف في طقوس الزواج تلك. حدّثت جين نفسها لكنها وجدت عينيها

مثبتتين، لا على العروس والعريس، بل على غافن.لم ينظر وراءه ولا
مرّة واحدة، لم يرها، لكن جين ادركت أنه يعي تماماً أنها تنظر اليه.
وبعد مضي دقائق، غجاءت تلك اللحظة المصيرية. حدث ذلك مع
انتهاء طقوس الزواج، فقد استدار غافن للحظات، والتقت عيناه
عيني جين. كانت عيناه داكنتين، لاحت فيهما ظلال المسافة الفاصلة
بينهما. لكن نظرات الاثنين في تلك اللحظة كانت وكأنّهما كانا وحدهما
في الكنيسة. أشاحت جين بوجهها بعيداً، مرتعشة بل إنها أحسّت
بالدوار وغير قادرة على تحمّل المزيد. عرفت الآن، إنها تحب غافن
غرانت.

توجه المدعوون الى الحفلة التي اقامتها أسرة موراي في منزلها.
أخذت جين تثرثر مع كولن و ميغان ووالدها، آملة الا
تفضحها حركاتها. تقدّم غافن نحوهم محدثاً ومعه كاي فشعرت
جين بالألم بينما كانت كاي تتأبط ذراع غافن بمجرد لمسة خفيفة
كلمسة الفراشة، وهي تبتسم لجين معربة لها عن إعجابها بثوبها،
استجمعت جين شجاعتها من مكان دفين فبادلتها الابتسام وتحدّثت
بطريقة طبيعية، بينما كان كولن يحيطها بذراعه في خفة. لم تقو
جين على مبادلة غافن النظر. وبدلاً من ذلك أخذت تراقب
باعجاب جمال وجه كاي الهادىء بتعبيره الصافي وعينيها ذات
الأهداب الكثيفة وهما ترمقانها بطريقة صادقة ودودة. لم يكن فيها ما
ينم عن الخداع مثل سارة،كانت هناك ثقة كاملة بالذات جعلت
جين تحس وكأنها صبية في طور الدراسة الثانوية. غير أن جين
لم تكن تدرك كم كانت بدورها تبدو نضرة فاتنة في ثوبها وكم أضفى

عليها الحياء مسحة من البراءة.

كانت تجيب في هدوء على أسئلة كاي حول انطباعاتها عن
الجزيرة وعندما تدخل غافن في الحديث وذكر لها خدماتها للمدرسة،
تبادلا النظرات. ليتها تستطيع أن تتصرف تصرفاً طبيعياً. بادرها
قائلاً:

«أريد أن أتحدث معك في شأن المدرسة، قد لا يكون هنا المكانَ
المناسب. تحدّثت طويلاً مع آن موراي.»

فقدت دقات قلب جين انتظامها. ترى ماذا قالت له آن؟يا لي
من حمقاء! كان يجب أن انبهها ألاّ تقول شيئاً. ابتسمت أخيراً قائلة:
«في وقت آخر. اسمحوا لي الآن. يجب أن أذهب لأرى ما إذا كان أبي
يريد شيئاً.»

توارت جين ومعها كولن الذي أمسك بذراعها هامساً بحدة:
«قولي لي، ماذا بينك وبين غافن؟»
«ماذا تقصد؟»
«أنا لا أعرف! إنه مجرد شعور. عندما تجتمعان كأن هناك شرارات خفية
تتطاير في كل اتجاه، لا أعني اليوم فقط. فقد لاحظت ذلك من قبل.»
«خيالك خصب.»

ردت عليه جين بسرعة وهي تلوح من بعد الى أبيها الذي كان
يجلس مع ميغان و ماك تحت جرة ظليلة في الحديقة. يجب أن
تكون أكثر حرصاً ولا تدع مشاعرها تنكشف وإلاّ كانت النتيجة
مروعة، لا يمكن تكهنها. وفي محاولة يائسة تمكنت من أن تقول:
«في الواقع ان هناك نوعاً من عدم الاستلطاف بيننا، هذا هو كل ما في

الأمر ان هذا يحدث أحياناً. مجرد تعارض في الشخصيات.»

«ليس الأمر بهذه الأهمية»

تأبط ذراعها وانضما الى المدعوين.

بدأ الرقص فوق المروج الخضراء. عقدت جين مقارنة بين هذه الأمسية وحفلة سارة. فالجو كان مختلفاً تماماً. كانت سارة هذه الليلة في الحفلة وقد نجح غافن في تقسيم وقته ببراعة بين سارة وكاي.انه يملك كل شيء، المظهر الحسن والثراء وفتاتين جذابتين. إنه بارع حقاً ـ وهي بكل غبائها وقعت في شراكه. أحسّت بألم حاد كالسكين لرؤيته يرقص مع كاي، حاولت في يأس أن تسترخي بين ذراعي كولن. يا ليتها كانت تحس ولو بذرة عاطفة تجاه كولن. يا ليتها كانت ولكن ما من فائدة.

رقصت جين مع ماك الذي قال:

«وافق أبوك على السفر الى سيلان لعرض نفسه على طبيب اختصاصي. كل هذا كان بتأثيرك. فقد أقنعته بأن يفعل ذلك من أجلك.»

«ماك، أنا سعيدة للغاية. متى سيذهب؟»

«يوم الثلاثاء وسأذهب معه.»

«هل أذهب معكما أيضاً؟»

خفّت حدة الموسيقى وقد وقفا في رقعة ظليلة بعيداً عن الفوانيس التي علقت عبر الحديقة. حك ذقنه مفكراً ثم قال:

«لا أعرف يا جين. فغافن هو الذي سيأخذنا بطائرته.»

وقبل أن ينهي جملته، رأت الرجل الذي ليس في وسعها أن تتحاشاه

قادماً وحده نحوهما فبادره ماك:

«هل يمكن أن تأتي جين معنا الى سيلان؟»

نظر اليها غافن في صمت وأحسّت إنها ترتعش كمن ارتكب خطأ.

ثم قال:

«سبقكم شخص آخر وطلب مني الطلب نفسه.»

تردد قليلاً ثم قال:

« ماك، هل يمكنني أن أتحدث مع جين على انفراد؟»

«بالتأكيد. الى اللقاء»

تأبط غافن ذراع جين وقادها الى رقعة داكنة من ظلال الأشجار وقال في رقة:

«أريد فقط أن أتحدّث معك.دعينا نجلس هنا.»

أشار الى مقعد تحت شجرة، اتجهت اليه جين وهي سعيدة بفرصة الجلوس قبل أن تخونها قدماها.

«أبلغتني آن بأنك تريدين عملاً.»

رفع يده طالباً منها الهدوء أمام شهقتها ثم قال:

«أنا آسف، دعيني استخدم عبارة اخرى. هل تقبلين بالعمل في المدرسة بشكل منتظم في مقابل راتب مناسب؟ أنت تنوين البقاء هنا، أليس كذلك؟»

ثبتت جين نظرها على يديها وقد شبكتهما في توتر. كيف يمكنها أن تفعل ذلك الآن؟ كانت لديها مخاوف من العمل في مدرسة غافن، والآن زادت تلك المخاوف بعدما أدركت أنها تحبه:

«لا أعرف.»

«لا تعرفين ماذا؟ لا تعرفين ما إذا كنت ستبقين في سارامنكا، أم لا تعرفين ما إذا كنت تودّين العمل في المدرسة؟»

أسرعت ضربات قلب جين. فقد غمرها احساس بالطمأنينة وهي قريبة منه. ما هذا التبدل المفاجيء في نظرتها اليه؟ قالت:

«كانت مجرد فكرة، فأنا لا أريد أن —»

كانت على وشك أن تقول 'لا أريد أن أعمل لديك' ولكن الكلمات توقفت.

أطلق ضحكة صغيرة وقال:

«لا تودّين أن تعملي في مشروع يخصني. أليس كذلك؟»

ابتلعت ريقها بصعوبة قائلة:

«هذه هي الحقيقة ما دمت قلتها بنفسك.»

كانت تعرف أنه غضب. نظر اليها بعينين قاتمتين قائلاً:

«شكراً لصراحتك. هل لي أن أسأل لماذا؟»

«لا أعرف.»

لم تقو على الاشاحة بعينيها بعيداً. فقد كانت عيناه مركّزتين عليها

«نعم تعرفين. ماذا هناك؟ أنت خائفة من أن تقدمي على أي عمل يؤذيني. أليس كذلك؟»

شيء ما في صوته فجّر كل توترها العصبي. لماذا أخضع لهذا الارهاب؟ لماذا أصبح كالآخرين؟ ليس لدي ما أخسره. انه يعتبرني طفلة... فما من شيء على الاطلاق يقدر أن يجعله ينظر الي كما ينظر الى سارة.

«أنا لا أود أن أعمل معك لأنك تتصور إن في امكانك أن تصدر

الأوامر للجميع لكني لن أسمح لك بذلك.»

«إما أنك تمزحين وإما أنك جننت، أنا أصدر الأوامر للجميع. متى حصل ذلك؟»

أضفت نبرته الساخرة برودة على كلماته. همّت جين بالوقوف، لكنه بحركة عنيفة أجلسها مكانها قائلاً:

«اجلسي. أنا فعلاً أحب أن آمرك أحياناً! اللعنة على هذا التفكير لماذا تدخلين دائما في صراع معي؟»

«أنا؟ كيف كان ذلك؟»

«بالطريقة الأنثوية الماكرة، واضافة الى ذلك...»

«أنا لن أبقى هنا لأسمع اهاناتك.»

نهضت وضربت الأرض بقدمها بشدة وقالت:

«كيف تجرؤ أن تتحدّث معي بهذا الشكل، عد الى صديقاتك وأنا...»

«وأنت تعودين الى صديقك كولن.»

وبعد ما نهض اضاف:

«أنت لا تقبلين الاهانة، بينما تسمحين بتوزيعها على الآخرين، لماذا لا تندمين على صفعي؟»

«لا تستفزني.»

تطلعت بعينين قلقتين نحو المنزل فبادرها قائلاً:

«لم يلاحظ أحد شيئاً. لكن استمري، فأنت تحققين تقدماً.»

«أنا أكرهك! هل تسمعني. أكرهك!»

«تكرهينني؟ اذن دعينا نرى ما اذا كنت تكرهين هذا أيضاً.»

جذبها بقوة نحوه وقد أحاطتها ذراعاه بقبضة قوية ساحقة جعلتها لا

تقوى على الحركة. حاولت ان تقاوم لكن فشلت. أبعدها عنه وقال في حدة:

«لن أعتذر حتى ولو اعتذرت فان موقفي لن يكون حقيقياً.»

صاحت وهي ترتعش من هول الصدمة:

«أهكذا تحارب النساء؟»

«نعم. اذا أردت هذا التفسير.»

«أنت حقير، كريه!»

«أنا أعرف ذلك، ولذلك فلن تستغربي إذا كان سلوكي سيئاً.»

مع هذه الكلمات استدار عائداً الى المنزل بينما وقفت جين وحدها، ثم سمعت حركة مجاورة فاستدارت لترى كولن أمامها. كان في حالة هياج. أحست بأنها على وشك البكاء، ردت يدها لتلمس ذراعه فأقصاها عنه واستدار بدوره عائداً الى المنزل. أغلقت جين عينيها. أما لهذا الكابوس من نهاية؟

٩ ـ العاصفة!

استعادت جين وهي في فراشها أحداث ليلة أمس وتراءى لها ما شاهدته عند عودتها الى منزل أسرة موراي. كان غافن يراقص سارة وقد تقاربا بينما كان كولن يمسك بكاي بين ذراعيه. قفزت جين جالسة في فراشها: لا فائدة من الاسترسال في التأمل. عليها الآن أن تنهض وتقضي اليوم مع أبيها في هدوء.

بادرها قائلاً وهما جالسان في الفناء:

«هل استمتعت أمس؟»

«أنا سعيدة بك يا أبي. علمت أنك ستعرض نفسك على صديق ماك هذا الأسبوع.»

«نعم، أجبرني ماك على ذلك.»

«أنا سعيدة بذلك يا أبي. أنت تبدو أفضل مما كنت يوم وصولي الى سارامنكا.»

مدّت يدها وأمسكت بيده قائلة:

«هل يمكنني أن أعيش معك هنا؟»

لم تكن تقصد أن تقول ذلك، لكن شيئاً ما دفع تلك الكلمات الى فمها.

«جين، إبنتي العزيزة اتريدين البقاء حقاً. لم أعد في حاجة الى طبيب ما دمت ستكونين الى جانبي.»

صاحت جين وهي تضحك وتبكي في آن واحد:

«بل يجب أن تذهب يا أبي.»

«لا تقلقي كنت أمزح فقط والآن سأذهب لأرى إلن.»

انفردت جين بنفسها وراحت تفكر: ألزمت نفسي بالبقاء وعليّ أن أتعلّم كيف اواجه الأمور، عليّ أن أتعلم كيف أضع على جلدي طبقة ثانية تحميني من سخرية غافن. أنا أعرف أنني اخترت القرار الصواب فأبي وليس غافن هو من يهمني.

حضر غافن و ماك صباح الثلاثاء ليصحبا والدها الى المطار. كانت سارة أيضاً في السيارة. حاولت جين ألاّ تنظر الى غافن الذي حياها عن بعد وكأنه يأبى الكلام.

وهكذا رحلوا وتركوها واقفة هي وإلن على السلم. داخلها فور إختفائهم شعور بالفراغ. لم يمرّ على وجودها في سارامنكا سوى أسبوعين وهي تشعر الآن بأنها ستفتقد الرجل الحنون، والدها.

بقي في خاطرها وجه غافن عندما كان ينظر اليها منذ لحظات ليعتصر قلبها. كانت نظرته رافضة حادة. حاولت ألاّ تذكر تلك البسمة الخفيفة المنتصرة التي علت شفتي سارة وهي تلوّح من السيارة.

صحبتها ميغان في الثامنة صباحاً الى المدرسة ونجحت جين بعد جهد في تنحية غافن و سارة عن خاطرها كما تجنبت ميغان

بمهارة الحديث عن غافن أو كولن. في ذلك المساء اتصل بها أبوها تليفونياً. كان صوته مليئاً بالحيوية وأبلغها أن الطبيب الاختصاصي طلب منه البقاء ليلة اخرى وأكد لها أنه سيتصل بها مرة أخرى مساء الغد للاطمئنان عليها.

أمضت جين اليوم التالي مع ميغان في شراء بعض الحاجيات من بورت باتريك ثم تناولتا القهوة المثلجة في منزل ميغان. غادرت جين منزل ميغان في الخامسة تقريباً وأصرّت على أن تعود سيراً على القدمين. للمرة الاولى أحسّت بوحدة شديدة. فور عودتها الى المنزل صاحت منادية:

« إلن، لقد عدت.»

لا جواب. الصمت مخيّم على المنزل. أحسّت جين بالحيرة دخلت الى المطبخ وهي ترجّح أن تجد مديرة المنزل هناك. بدلاً من ذلك وجدت مذكرة من إلن تخبرها فيها بأنّ اختها مريضة وقد ذهبت لترعى أولادها وانها ستعود الليلة.

لم يكن أمامها إلاّ أن تحاول الاستفادة من وحدتها وتلهي نفسها بأي عمل منتظرة اتصال والدها وعودة إلن. صعدت الى الطابق الأعلى لتستحم. لبست الشورت وأرخت شعرها وجلست في فناء المنزل تتصفح بعض كتب والدها. كان الجو هادئاً لا يزعج سكونه سوى رفرفة جناح طائر يلمع تحت أشعة الشمس. اخترق صوت آخر ذلك السكون، صوت طائرة، وعندما توقف ساد الهدوء من جديد. انغمست جين في القراءة لتفيق فجأة على صوت الامطار تهطل. أخذت ترقب قطرات المطر الكبيرة تتناثر أمامها بينما تبدّل الجو وازدادبرودة وقفت

الآن وسط الحديقة وقد رفعت وجهها لتحسّ قطرات الماء على وجنتيها. المطر هنا يختلف تماماً عن المطر في انكلترا. كانت القطرات كبيرة، ناعمة، ومهدّئة بشكل غريب. بعد لحظات أدركت أنها ستبتل فاحتمت مرة أخرى بالمظلة ترقب المطر. سمعت رنين التليفون فدخلت مسرعة.

كان الخط يطقطق من على بعد وجاء صوت أبيها ضعيفاً:

«جين هل تسمعيني؟ ذهبت الى الطبيب وهو يعتقد أن مرضي عصبي في الاصل. واختفى صوته تماماً فقالت جين :

«أكاد لا اسمعك. لكني سعيدة بهذه الأنباء.»

تعالت الطقطقه في الخط التليفوني فاضطّرت جين أن تبعد السماعة ثم صاحت:

«لا أستطيع أن أسمعك.»

«سأحاول أن أتصل بك ثانية، الى اللقاء يا جين.»

«الى اللقاء يا أبي.»

ماذا اراد أن يقول. لا يهم. الأمر الأساسي هو أن الطبيب يرى أنّ مرض أبيها ليس خطيراً. وشعرت بالراحة.أشعلت النور الذي أضاف بعداً جديداً الى الامطار المتساقطة فقد عكستها وبدت كجدار فضي لامع يتوهج ويتحرك.

تغيّرت طبيعة المطر بعد نصف ساعة. فقد هدأت قليلاً. رفعت جين رأسها وقد ظنّت أن المطر أوشك على التوقف لتسمع فجأة صوتاً مدوياً. أضاء البرق السماء كلها وفي الوقت نفسه جاء صوت الرعد يفوق كل ما سبقه من أصوات، كان صوتاً عنيفاً يتردد صداه في كل مكان. أحسّت بضربات قلبها تسرع، تخاف من العواصف منذ أن

رأت في طفولتها شجرة تنقسم الى نصفين بقوة البرق. هرعت الى الداخل وأنزلت الستائر، لكنّها وجدت نفسها ترتعش في انتظار عودة البرق. أحسّت جين بالوحدة والخوف كما لم تحس بهما من قبل وبعد لحظات سمعت نباح كلب وكأنه نواح، إنه كارلو! وسط مخاوفها تولّد لديها نوع من الشجاعة. تخيّلت وجه كارلو وهو ينظر اليها وقدّرت أن تفعل شيئاً من أجله. ركضت جين نحو الباب الخلفي وقد تضاءل خوفها بعد أن أشتدّ قلقها على كارلو.

زلت قدم جين وانزلقت مراراً عبر الممر الموصل بين الباب الخلفي والأشجار الكثيفة التي تفصل بين منزل أبيها ومنزل غافن. بدت تلك المنطقة كمكان مهجور وقفت تحتمي بالاشجار ثم ما لبثت ان رأت شبحاً أسود يتحرك نحوها فصرخت في نوبة ذعر وتلاحقت ومضات البرق لترى جين من خلالها رجلاً يتقدم نحوها رافعاً يديه.سمعت من يناديها: جين اختلط عليها كل شيء : العالم والمطر والظلمة فسقطت مغشياً عليها بين ذراعيه.

فتحت جين عينيها لتجد غافن قربها فاجتاحها شعور بالذعر لا علاقة له بالعاصفة. قفزت جالسة، تلفتّت حولها وهي تتحسس ثيابها المبتلة وقد التصقت بجسدها:

«نحن في منزلي يا جين.»

رأت كارلو جالساً في جوارها وقد علا وجهه تعبير قلق وكأنه فهم كل شيء، كما رأت غافن بوضوح الآن. كان شعره لامعاً وقد بلله المطر والتصقت ثيابه المبتلة بجسده. قفزت من مكانها وقد رأت البرق يتوهج قرب النافذة لتسمع صوت انفجار صغير أعقبه انقطاع التيار

الكهربائي. سمعت زمجرة الرعد وكأنه آت من السقف فقفزت»

«كل شيء على ما يرام سأحضر مشعلاً.»

حاولت التخلص من قبضته قائلة:

«لن أبقى هنا معك.»

«لا تكوني حمقاء، ستمكثين هنا على الأقل حتى تنتهي هذه العاصفة.»

كانت الغرفة حالكة الظلام، استدارت وهي لا ترى شيئاً فتعثرت باحدى قطع الأثاث، مدّ ذراعه وأمسك بها بقوة وهي تحاول دفعه بعيداً:

««لا تحاولي الفرار لا و لا تقاومي. اطردي الخوف ولو للحظة واصغي إليّ.»

وبحركة مفاجئة جذبها الى الأريكة.

«لماذا جئت الى هنا.»

«لأرى ما إذا كان كارلو في مأمن. لم أعرف أنك هنا.»

«هل جئت وحدك في مثل هذا الجو، من أجل كلب.»

«سمعته ينبح، وخيّل إليّ أنه خائف. لم أتوقع أن أراك.»

«كنت في طريقي لأتفقدك أنت وإلن.»

« إلن ذهبت تزور أختها وكنت وحدي.»

بدأت ترتعش وكأن احساسها بالصدمة جاء متأخراً.»

«يا لك من طفلة مسكينة»

لم يكن هناك أثر للسخرية في صوته، لم تجد سوى الشفقة وهي لا تحتاج اليها، تململت وقد أدركت فجأة أنّ ذراعيه تضغطان عليها بشدة:

«ليس هناك داع لتشعر بالشفقة عليّ.»

ارتجت الغرفة بصوت الرعد، فسقط شيء من قطع الزينة قربها فارتعدت.»

في لحظة الصمت التي أعقبت العاصفة سمعت تردد انفاسه وأحسّت بيده تقترب من وجهها فهمست قائلة:

«ارجوك ان تبتعد عني.»

«جين، آه لو تعلمين...»

جاء صوته عذباً مرتعشاً. توقف ليطوقها بذراعيه ووجدت نفسها تتجاوب مع ذلك الدفء. تعلّقت به لكنه ابعدها قائلاً:

«ما من فائدة يا جين. لم يعد ممكناً استمرار الصراع بيننا. قولي إنك لا تكرهينني.»

تحسس ذقنها ثم ربت على وجنتيها قائلاً:

«أحبك، ايتها الصغيرة.»

كاد قلبها ينفطر فصاحت وهي لا تصدق:

«قل هذا مرة ثانية.»

«أحبك، لم أقل هذه الكلمة لأية أمرأة مثلك، لم لا تضحكين، ألا تجدين هذا مضحكاً للغاية؟»

«لكني لا أصدق. هل هذه دعابة؟»

صدرت منها شهقة باكية.

« جين، حبيبتي لا تبكي أرجوك. لا أحتمل رؤيتك وأنت تبكين. نسيت العاصفة، لم تعد تزعجها الآن. مدّت يدها وتحسستَ وجهه قائلة:

«قلها مرة ثانية.»

«أحبك.»

«وأنا أحبك ايضاً. لكني كنت أعتقد أنك تكرهني.»

«كنت أريد أن أكرهك. أتذكرين عندما دخلت بيت أبيك وكنت تعزفين على القيثارة. رأيتك فأحسست للمرة الاولى في حياتي بالخوف. فأنت صغيرة جداً وأنا أكبرك بثلاثة عشرة سنة.»

وضع اصبعه على شفتيها ليحبس شهقة ألم وأضاف:

«اسمعيني حتى النهاية يا حبيبتي. تلك الليلة في حفلة سارة كنت أخطط للوصول إليك لكني تراجعت لأنني أيقنت بأنني أحبك في صدق. ومع ذلك كنت أقاوم فكرة الاعتراف بذلك. ولهذا بدوت لك قاسياً متعجرفاً.»

قالت وهي ترمقه بحنان:

«أدركت أني أحبك في الكنيسة يوم الزفاف. كنت أقاوم هذا الحب بدوري لأنني. اعتقدت بأنك تحب سارة كما يردد الجميع.»

«اعرف ما يقوله الناس. لكن الحقيقة هي أنني لم أحب أية امرأة في حياتي. إلى أن جئت انت. وأعرف أنني إنسان أناني إلى أن تعلمت منك أنّ المال والعمل ليسا كل شيء في الحياة. لقد غيرّت حياتي كما غيرّت حياة والدك.»

توقف برهة ثم أضاف:

«هل تبقين في سارامنكا وتتزوجينني؟»

«نعم... نعم يا غافن.»

خمدت العاصفة واختنق وميض البرق ودوي الرعد وبدأت مرحلة جديدة في حياة جين و غافن.